خدمات أكاديمية
كفاءات وطنية
معايير عالمية
دراسة
للاستشارات والدراسات والترجمة
UNIVERSITY
drasah1
www.drasah.com
00966555026526
00966560972772
info@drasah.com

خدماتنا

شركة دراسة
للاستشارات و الدراسات والترجمة

- توفير المراجع العربية والأجنبية
- التحليل الاحصائي وتفسير النتائج
- الاستشارات الأكاديمية
- جمع المادة العلمية
- الترجمة المعتمدة

drasah1
info@drasah.com
00966555026526
00966560972772
drasah.com

دراسة
للاستشارات والدراسات والترجمة
تواصل معنا
00966555026526
00966560972772
متواجدون على مدار الســـاعة

توظيف الإطار المنهجي للنظرية المجذّرة في تأصيل البحث البلاغي

"نظرية النظم أنموذجًا"

Use of Methodological Framework of Grounded Theory in Tracing Roots of Rhetorical Research

"The System Theory as Case Study"

د. زينب بنت عبد اللطيف كامل كردي

أستاذ مشارك بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

البريد الالكتروني: ziiiin@hotmail.com

المستخلص

تصنّف هذه الدراسة ضمن الدراسات البينيّة التي تتناول البحوث اللغوية الإنسانية، والبحوث الاجتماعية النوعية؛ إذ تقارن بين نظريتين مهمّتين لكلٍّ منهما أثر واضح في مجاله، هما: نظرية النظم في البحث البلاغي، والنظرية المجذّرة في البحث النوعي، وذلك لتوظيف منهج النظرية المجذّرة، في تأصيل البحث البلاغي وفق نظرية النظم، وجاءت الدراسة في أربعة مباحث؛ تناول أولها نبذة عن نظريتي الدراسة، ومواطن التشابه بينهما، وأبرز الثاني منهجية الجمع والتصنيف، وفصّل الثالث مراحل التحليل المنهجي، وبسط المبحث الرابع الإجراءات التحليلية، واعتمدت الدراسة المنهج الاستنباطي والمقارن، وخرجت بالنتائج الآتية:

١. التشابه بين كلٍّ من النظرية المجذّرة ونظرية النظم في اهتمام كلٍّ منهما بالتحليل الذي يختلف في كيفيته وماهيته.
٢. تميّز النظرية المجذّرة بإطار منهجيّ منظم في جمع المادة وتصنيفها، يمكن أن يسهم في تنظيم منهجيّة البحث البلاغي وفق نظرية النظم.
٣. قيمة تطبيق مراحل التحليل في النظرية المجذّرة في البحث النوعيّ على نظرية النظم، في الاهتمام بتحقيق التكامل في التحليل البلاغيّ الذي يحقّق الجودة المنهجيّة.
٤. الكشف عن الإجراءات المنهجيّة للتحليل التي يتفق فيها كلٌّ من النظرية المجذّرة ونظرية النظم، مع إبراز جوانب تفرَّدت بها نظرية النظم يمكن أن توضع ضمن إجراءات التحليل المنهجيّ التي يحتاجها البحث البلاغيّ للوصول إلى أفضل النتائج.

الكلمات المفتاحية: نظرية النظم، النظرية المجذّرة، التحليل، المنهج العلمي، البحث النوعي، الكيفي، البحث البلاغي.

Abstract

This is an interdisciplinary study addressing the humanistic linguistic and socio-qualitative research. This study indents to draw a comparison between two important theories, each of which has made substantial contributions, namely: System Theory in rhetorical research, and Grounded Theory in qualitative research, in order to use the methodology of grounded theory approach in tracing roots of rhetorical research according to System Theory. The study is composed of four chapters. The first chapter includes an overview and sets out the resemblance of the two theories; the second chapter sheds light on the methodology of collection and compilation; the third chapter sets out in detail the phases of methodological analysis; and the fourth chapter sets out the procedures of analysis. The study adopted the deductive and comparative approach, resulting in the following findings:

1. Both theories (Grounded Theory & System Theory) are concerned with analysis. Nevertheless, meaning and method of this analysis differ in each of the two theories.
2. The grounded theory is characterized by an organized methodology in collection and compilation, contributing to organizing the methodology of rhetorical research according to System Theory.
3. Applying the phases of analysis of the grounded theory in qualitative research to System Theory results in paying attention to realization of integration in rhetorical analysis that achieves the methodological quality.
4. The methodological procedures of analysis that are common between the grounded theory and the System Theory are uncovered, in addition to highlighting the unique aspects of System Theory that can be included in the procedures of methodological analysis required for the rhetorical research to realize the best results.

Key Words: System Theory, Grounded Theory, Analysis, Scientific Method, Qualitative Research, Qualitative, Rhetorical Research.

المقدمة

الحمد لله الذي جعلنا بالعربية ناطقين، وشرّف لغتنا بكتابه المبين، والصلاة والسلام على نبيِّنا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أمّا بعد؛ فعلم البلاغة علم شريف، له منزلة جليلة الأثر، وفيه أسرار تُعرف برويّ الفكر، ولطائف من النظم، ينفرد بها دون سائر العلوم. ويواجه المتأمِّل في مسيرة هذا العلم مؤسِّسِين وضعوا علامات مضيئة، تهدي السائرين في درب المعرفة والتأصيل، وتشوّق إلى قراءة تراثه، والإفادة من نتاج عقوله المبدعة في بسط المسائل واستقصائها، وسبر أغوارها تأصيلاً وتمحيصًا، راسمة معالم بارزة في صفحات الإنجاز العلميّ المشرق، ومن أولئك العلماء عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ) الذي أرسى دعائم نظرية النظم في الدرس البلاغيّ متّخذًا منها أداة مهمّة رائدة في التحليل العميق للنصوص، يستشرف الباحثون على مرّ الزمان أصولها، ويحتذون طريقتها في التحليل التذوّقي.

وفي مقابل نظرية النظم في التحليل البلاغي، تظهر نظرية تمثِّل أداة للتحليل والمنهج، الذي طالما مثّل تطويره وإبراز إجراءاته هاجسًا علميًّا؛ فوجدت النظرية المجذّرة تلتقي مع نظرية النظم البلاغية في اهتمام كلٍّ منهما بالتحليل، وإن كان يختلف في مجاله وماهيته. مما دفعني إلى التفكير في إقامة دراسة بينيّة تقارن بين النظريتين، مستمدّة أصولها من التراث، مع الإفادة من معطيات العصر بتوظيف الإطار المنهجيّ في التحليل النوعيّ وفق النظرية المجذّرة، في تأصيل التحليل التذوّقي في البحث البلاغي وفق نظرية النظم؛ بتجلية معالم كلٍّ منهما لوضع صورة منهجية متكاملة، تسعى إلى تأصيل عمل عبدالقاهر في تحليلاته التذوُّقية العميقة بعرضه على أدبيّات النظرية المجذّرة، للخروج بمعايير علمية، وخطوات عملية، ترسم إجراءات منهجية واضحة الملامح للتحليل البلاغي باستثمار طاقات نظرية النظم التحليلية في البحث البلاغي، واستلهام معالم الأصالة فيها وصولاً إلى الربط المثمر بين عبق الماضي بشذا إبداعه التذوُّقي، مع التقدُّم العلميّ الحاضر وإجراءاته المنهجية، للإسهام في إظهار البحث البلاغيّ في صورة بهيّة، تجلّي أصالة المنجز العلميّ، وتنفتح على معطيات

التلاقح الحضاريّ بوعي، يستصحب الحذر في إقامة توازن منصِف أصيل بين نظرية بلاغية راسخة الجذور في تحليل النصوص، ونظرية اجتماعية واضحة المنهج في تحليل الظواهر والبيانات. بتقويم موضوعي للتراث العربيّ، يبرز حقّه في الحضور أمام المعطيات المنهجيّة للبحوث النوعية. لاستكشاف تصوّرات علمية جديدة في جهود عبدالقاهر جديرة بالاتباع في توضيح مراحل التحليل البلاغيّ وإجراءاته.

والمنهج هو لبّ البحث العلمي، الذي يكفل تحقيق النتائج المأمولة، وإنجاح منظومة الفكر التي يسعى إليها في تحقيق الهدف والإسهام في المنجز الثقافيّ والعلميّ، و((ليس لهذا الجيل حاجة أشدّ من حاجته إلى أن يفتح صفحات المعرفة، التي تدلُّه على طرائق بناء المعرفة، وكيف استنبت العلماء علومهم، وكيف استخرجوا من النواة المطروحة نخلة سامقة))[1]؛ لذا جاءت هذه الدراسة استجابة لفتح طرائق المعرفة، وتجلية جهود عبدالقاهر في البحث البلاغيّ، ووضعها في إطار معياري منهجيّ.

أهمية الدراسة:

تكمن قيمة هذه الدراسة في مستويين: علميّ وعمليّ؛ حيث تسعى إلى تأصيل منهجيّ لخطوات التحليل وإجراءاته عند عبدالقاهر التي برز فيها تفوُّقه العلمي في التطبيقات التحليلية في نظرية النظم، بتنظيمها في إطار منهجيّ مستمدّ من النظرية المجذّرة في البحوث الاجتماعيّة النوعية، فتفيد القائمين على البحث العلميّ والدراسات العليا في الجامعات والمراكز البحثية، والمرشدين الأكاديميّين، والمشرفين العلميّين، ويمثِّل تطويرًا لنظرية النظم بالإفادة من بعض ما جاء في الأدبيّات المنهجية للنظرية المجذّرة، يمكن أن يُبنى في ضوئه تصوّر مقترح لبرنامج، يرسم خارطة تهدي المشتغلين بالبحث العلميّ في مسيرتهم العلمية الشاقة الماتعة، وذلك لتنمية المهارات البحثية، وتقوية الضوابط المنهجية؛ وتجويد الأداء العلميّ، وصياغة منهجه صياغة متقنة مُحكَمة. فالإلهام الحقيقيّ ينتج من إنجازٍ للجديد، أو بعث للقديم، يلبسه حلّة

(١) مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني: ٤.

جديدة، تبرز قيمة التفكير خارج الصندوق.

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى تأصيل تحليلات نظرية النظم وفق إطار منهجي مستمدّ من النظرية المجذّرة؛ لتقديم محتوًى بحثيّ علميّ مثير للاهتمام، يستثمر الموجود في تحسين مستوًى أعلى من الجودة المنهجية التحليلية، وَفق أربعة أهداف رئيسة، هي:

١. المقارنة بين نظريتي الدراسة.
٢. توضيح منهجية الجمع والتصنيف في النظرية المجذّرة.
٣. الإفادة من مراحل التحليل في النظرية المجذّرة، في توسيع الإطار النظري لنظرية النظم.
٤. تجلية إجراءات التحليل في كلٍّ من النظرية المجذّرة ونظرية النظم.

مشكلة الدراسة:

تتلخّص مشكلة الدراسة في حاجة البحث البلاغي إلى إطار منهجي، ينصف نظرية النظم، ويحفظ لها حقّ التقدير والسبق والتفوُّق؛ المبني على التكامل المعرفي لعلم البلاغة الذي اكتسب جلاله من تدبُّر بيان الوحي، ففاق العلوم، وشرّفها بخدمته. وباستحضار هذه الخصوصية الجليلة؛ تنضبط حركة التجديد، وتستقيم على الجادّة، مبيِّنة تسامي البلاغة في معارج شرف لا يضاهى، ولا طاقة لأحد باستشرافه، أو إذابته في غيره مما لا يتواءم مع أصالته وخصوصيّته؛ لذا اقتصرت الدراسة على الإفادة من المراحل البحثية والإجراءات التحليلية للنظرية المجذرة، مع اليقين أنّ منطلق التجديد الناجح في صميم البلاغة يكون من داخل العلم نفسه، لا من خارجه[(١)]، وما هذه الدراسة إلاّ إطار منهجيّ، يبرز تميُّز البلاغة، ويغري بالعودة إلى آفاق التحليل، واستلهام طريقة النظم التذوُّقية الكاشفة عن نواحي الجمال.

أسئلة الدراسة:

تجيب الدراسة عن سؤال رئيس هو:

(١) ينظر: في نقد العقل البلاغي: ٢٤-٢٨.

ما طريقة توظيف النظرية المجذّرة في بناء مراحل التحليل وإجراءاته في نظرية النظم في البحث البلاغيّ؟

وتتفرّع منه الأسئلة الآتية:

١. ما مواطن التشابه بين نظريتي الدراسة؟
٢. علام تقوم منهجية الجمع والتصنيف في النظرية المجذّرة؟
٣. كيف يمكن توظيف مراحل المنهجيّة في النظرية المجذَّرة، في تطبيقات نظرية النظم؟
٤. ما إجراءات التحليل في النظرية المجذّرة، وما مدى تفوُّق نظرية النظم عليها في الإجراءات؟

وتساعد الإجابة عن الأسئلة السابقة في تقديم حلول لمشكلة الدراسة، والتوصّل إلى نتائج تطبيقية، تمكِّن من اتباع معايير منهجية للبحث البلاغيّ، تأخذ بيد الباحثين نحو آفاق الجمال في البلاغة، والشغف البحثيّ وفق منهج تحليليّ تذوُّقي معياريّ.

خطة الدراسة:

انتظمت خطة الدراسة في مقدّمة، وأربعة مباحث، على النحو الآتي:

١. نبذة عن نظريتي الدراسة، ومواطن التشابه بينهما.
٢. منهجية الجمع والتصنيف في النظرية المجذّرة.
٣. مراحل التحليل.
٤. إجراءات التحليل.

ثم ذيلت الدراسة بخاتمة ضمّت النتائج والتوصيات، وثبت للمصادر والمراجع.

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة كلًّا من المنهج الاستنباطي والمقارن، فتناولت أسس التحليل العلمي للبحث البلاغي في نظرية النظم مع رسم إطاره المنهجيّ من أدبيات النظرية المجذّرة المتعلِّقة بدراسة الظواهر والإشكالات الاجتماعية بتأمّل ما تحتاجه بياناتها

المعدّة من العمق في التحليل[1].

وقد حصرت الدراسة مبدئيًّا مراحل النظرية المجذّرة وإجراءاتها في التحليل، وصنّفتها وعرضتها على التحليل البلاغي للنصوص وَفق نظرية النظم، معتمدة على تحليلات عبدالقاهر للنصوص، لتصميم خطوات منهجية، وإجراءات بحثية واسعة الأفق بعيدة المدى؛ تقوم على جمع المادة العلمية وتصنيفها، واستنباط أصولها وإجراءاتها في محتوًى علميّ منطقيّ. ((وكلمة الاستنباط تعني منهجًا متكاملاً في الدرس، والفهم والتدقيق والتمحيص، وقد كان هذا المنهج بتكاليفه الصعبة ظاهرًا ظهورًا بيِّنًا في كلام عبدالقاهر. ترى استيعابًا كاملاً للمسألة، وحصرًا بارعًا مستقصيًا، لكلّ ما قيل فيها، وفَهمًا عميقًا، ثم مناقشة ومحاورة وبسطًا وامتدادًا واستنطاقًا وتشقيقًا وتفريعًا، وهذا كلّه جديد وتجديد وتطوير، وهو المراد بصناعة المعرفة))[2].

وسارت الدراسة في منهجيّة محدَّدة، تسهم في تجويد العمل على النحو الآتي:

١. عرض موجز لمراحل التحليل النظرية المجذّرة، وإجراءاتها التحليلية، وكان البَدء بها؛ لأنها تمثّل الإطار المنهجيّ.
٢. الاكتفاء بالملامح العامّة للنظرية المجذرة التي تخدم الإطار المنهجّي لنظرية النظم في البحث البلاغيّ، دون الخوض في التفاصيل وأسماء العلماء الذين أنشؤوها وطوّروها.
٣. الانفتاح والمرونة بالقدر الذي يكيّف إجراءات النظريّة المجذّرة، مع الظواهر والإجراءات البحثية التي تتناسب مع البحث البلاغيّ وَفق نظرية النظم.
٤. تطبيق لمراحل التحليل وإجراءاته في النظرية المجذّرة على تحليلات نظرية النظم بذكر شاهدين في مجال التطبيق على العناصر المعروضة.
٥. التعقيب بما يجلّي أوجه المقارنة المنهجيّة في كلّ عنصر.
٦. وضع عنوانات للإجراءات التحليلية التي زادت بها نظرية النظم على

(١) ينظر: مدخل لمنهج النظرية المجذّرة: ٢.
(٢) مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني: ٣-٤ .

النظرية المجذّرة.

ويَبرز عمق نظرية النظم وأصالتها حين يظهر تفوُّقها على نظرية اشترك فيها عالمان في العصر الحديث هي النظرية المجذّرة. فمن ثمار المعرفة المراجعة الدائمة لأصول العلم، ورياض المعرفة تزدهر بتعاهد نمو الأفكار، وتأمُّل فروع التواصل التي تجعلها تتشابك، وينفتح بعضها على بعض بضوابط منهجية، لا يمكن تجاوزها، بل لا بدّ من إبراز الأصالة العلمية، وإثبات عبقرية العقل البلاغي، التي ينبغي أن يستحضرها الباحثون في التجديد، موقنين أنها لا توصد أبواب العلم، بل تجعلها مشرعة للاجتهاد في صناعة المعرفة مع ضبطٍ للمعاقد والأصول، واستحضارٍ للاعتزاز بالهُوية الإسلامية[1]، وتذكّرٍ بأن الإفادة من غيرها قوامها فخر بما وضعه علماؤنا، وإفادة من معطيات العصر لإضفاء مسحة من التجديد الحصيف الفطِن على المنهجية بقصد إبراز العقلية العلميّة التي اتسم بها علماؤنا بنبوغ سابق لعصورهم.

فالتجديد المأمول يسبر أغوار القديم الأصيل، ويحلِّل أجزاءه، مراعيًا مقامات علمائه، معترفًا بجهد واضح لهم، لا يماري فيه منصف؛ ((فما نحن فيهم إلاّ كبقل في أصول نخل طِوال))[2]؛ فما أحرى أن نستنبِت من تلك البذور المعرفية غرسًا منهجيًّا راسخ الجذور، وطّده علماء البلاغة على اختلاف أعصارهم، لنعيَ ما يُنتظر منا في إتمام البناء.

وبعد، فأرجو أن يكون لي من حسن القصد، وإخلاص الجهد، ما يشفع لي فيما ندّ به الفهم، أو زلّ به القلم، وأستغفر أرحم الراحمين، وأسأله أن يجعل لي لسان صدق في الآخرين، وأصلي وأسلم على نبيّه الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) ينظر : في نقد العقل البلاغي: ١١٩-١٢١.

(٢) قاله أبو عمرو بن العلاء أحد القرّاء السبعة. تاريخ دمشق: ٦٧/١١٣.

المبحث الأول: المقارنة بين نظريتي الدراسة

يتناول هذا المبحث مفهوم النظرية، ونبذة عامة عن نظرية النظم لأنها الأسبق، كما أنّ النماذج التحليلية التطبيقية قائمة عليها، ثم التعريج على النظرية المجذّرة، وبيان إطارها المنهجيّ العامّ، متبوعًا بمواطن التشابه الذي استدعى المقارنة بين النظريتين.

مفهوم النظريّة:

لغة:

أصل نظر يدلّ على تأمُّل وفكر ومعاينة. والنظر يكون بالعين أو القلب، فلو تعدّى بإلى؛ لم يكن إلاّ بالعين، أمّا بفي؛ فيحتمل أن يكون تَفَكُّرًا، وتدبُّرًا بالقلب(١).

اصطلاحًا:

تعرّف النظرية بأنها: ((فرض عمليّ، يربط عدة قوانين بعضها ببعض، ويردّها إلى مبدأ واحد، يمكن أن نستنبط منه حتمًا أحكامًا وقواعد))(٢). فهي تركيب عقليّ، يقوم على التأمّل والمعاينة والتفكُّر، ويتألّف من تصوّرات منسّقة، تقصد إلى تفسير الظواهر عن طريق قوانين وإجراءات تربط النتائج بالمبادئ(٣)؛ فالنظرية تسهم في بناء فكر جديد. وبما أنّ الدراسة تتناول نظريتين لكلٍّ منهما أثر كبير في المنجز المعرفيّ؛ فيحسن إيراد أبرز السمات لكلٍّ منهما:

١.نظرية النظم في البحث البلاغي:

يقوم علم البلاغة على الذوق، وتنمية الملَكة في الإحساس بالجمال، وفهم أسس التواصل اللغوي بالجمع بين الإمتاع والإقناع؛ فلا غرو أن يسمّيه حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) بالعلم الكلِّيّ؛ مبيّنًا قيمة التكامل المعرفي التي يقوم عليها علم

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب: نظر.

(٢) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية: نظر.

(٣) ينظر: المعجم الفلسفي لصليبا: نظر.

البلاغة بقوله: ((معرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك، وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع؛ فيعرف حال ما خفيت به طرق الاعتبارات من ذلك بحال ما وضحت فيه طرق الاعتبار))[1]. فليست البلاغة مقيدة بالتقعيد والأصول، بل تعتمد على الذائقة السليمة، واستقراء النصوص بما تحويه مضامينها من رفيع النظم وبديع المعنى، وما تفتحه من آفاق التأويل المبنيّة على مراقي التحليل؛ إذ يحتاج الباحث إلى معايير فكريّة بحثيّة، تمكِّنه من تطبيق الذوق، وفَهم أبعاد الأساليب، التي تحتكم إلى سلامة السليقة، وتتبُّع التراكيب.

وقد قدحت إشارات العلماء إلى النَّظْم زناد الفكر عند عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ)، الذي امتاز بحصيلة ثقافيّة واسعة في النحو وعلم صناعة الشعر، واللغة وعلومها، مما أمدّه بقراءة واعية للفكر البلاغيّ؛ فتلقّف أصول نظرية النظم ممن سبقه من العلماء، وجعلها ومضات في الطريق نحو التطبيق العمليّ، الذي أفاض عليه من ملكته البلاغيّة المنتجة، ليرسي دعائم مدرسة للتحليل التذوُّقيّ للنصوص البليغة، مكمِّلاً جهود من سبقه من العلماء بخطوات تذوُّقية معياريّة بالقياس إلى عصره، جمعت المسافات والأزمنة السابقة، فاتّضحت عنده ملامح واضحة للنظريّة؛ فبيّن معالمها، ورسم حدودها، وأعلى منارها بنظراته العميقة وتذوُّقاته البليغة، وتفنُّنه في إبراز اللطائف البيانيّة وعمق المعاني بتأمّل اختلاف الصيغ التركيبيّة في النظوم المتباينة، واستشراف مواطن بلاغتها وجمالها. ومن تحليلاته العميقة في تحليل النصوص تكوّنت نظرية النَّظْم.

ولم يكن عبدالقاهر معنيًّا في الدرجة الأولى بالتنظير قدر عنايته بالتحليل والتطبيق من خلال الشواهد المتنوِّعة: قرآنيّة ونبويّة، شعريّة ونثريّة، التي قصد من إيرادها تعميق الإحساس بإعجاز القرآن ورفيع بلاغته؛ لذا جنّد بعض البلاغيِّين أقلامهم في إبراز أسس النظريَّة بالتقاط درر آرائه حول النَّظم في طوايا تحليل الشواهد؛

(١) منهاج البلغاء: ٢٢٦-٢٢٧.

لتكون واضحة المنهج أمام الباحثين عند التطبيق البلاغيّ[١].

وتبرز عبقرية عبدالقاهر بمقارنته بمعطيات عصره، ولا غرو أن تتجلّى أكثر عندما يقاس عمله بامتزاج مدرستين للبحوث النوعيّة والكمّية معًا ابتكرتا نظرية للتحليل طبّقت شهرتها الآفاق، وتوالى على تطويرها وإبراز معالمها عدد من العلماء على مراحل متعاقبة، مما يعدّ مؤشرًا واضحًا على ما تمتلكه من قوّة منهجيّة، اتسمت بالعمق والتنظيم والدقّة في الصياغة التحليليّة للظواهر الاجتماعيّة، هي النظريّة المجذّرة، المؤسِّسة لمنهج بحثيّ يهدف إلى تنظيم البيانات وتحليلها، وتيسير الوصول إليها بطريقة استقرائيّة منتظِمة، قوامها المقارنة المنهجيَّة، لإيجاد قاسم مشترك يجمعها[٢]. ولِما تحمله هذه النظريّة من الثبات والدقّة والعمق، توالت البحوث في التوصية بالإفادة من معاييرها المنهجيّة، للرقي بالبحث العلمي والإسهام في تجويده.

عرّف عبدالقاهر النَّظْم بأنه توخِّي معاني النحوِ فيما بينَ الكَلم، فتنتظم المعاني، في النفس أوّلاً، ثم يتلوها ترتيب الألفاظ في النُّطْق، لتكتسب الكلمة فصاحتها من مكانها من النَّظْم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني أخواتها، فتصبح متمكّنة مقبولة متلائمة مع قريناتها في السياق. بتأمّل ترتيب الكلام وتأليفه بطرق مخصوصة[٣]؛ ((فقد فطن عبدالقاهر إلى أنّ اللغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل هي مجموعة من العلاقات)) [٤].

(١) من الدراسات التي تناولت نظرية النظم وكشفت عن تحليلاتها العميقة، مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني، أ.د. محمد أبو موسى، نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبدالقاهر الجرجاني، د.محمود توفيق، ونظرية النظم عند الشيخ عبدالقاهر الجرجاني: دراسة-تطبيق-تحليل، د. نجاح الظهار، التي ذكرت قيامها بإجراء دراسة عملية تجريبية تهدف إلى بيان "أثر استخدام نظرية النظم عند الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في تنمية التذوق البلاغي" وعرضت نسب النتائج، مؤكدة فعالية استخدام طريقته التحليلية في تنمية التذوق البلاغي. ينظر: نظرية النظم عند الشيخ عبدالقاهر: ٧.

(٢) ينظر: مدخل لمنهج النظرية المجذّرة: ٢.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ٨١-٨٢.

(٤) النقد المنهجي عند العرب: ٣٣٤.

ولإثبات مفهوم النَّظْم وإثبات نظريته سلك عبدالقاهر إجراءات تحليلية تذوقية، ومنهجًا عقلانيًّا إبداعيًّا، انبثق من دراسته للُّغة الثريّة، بما تحتاجه من تمعُّن في اختيار الألفاظ ونظمها، والتفنُّن في وضع كلِّ لفظة في سياقها[1]، وتقوم طريقته على عرض مجموعة من الشواهد المتنوِّعة بين قرآنيّة ونبويّة وشعريّة ونثريّة لإثبات الإعجاز البلاغيّ، وتدبّر آفاق معانيه، وخصوصيَّة تراكيبه التي تبعها تفرّد معانيه، وإبداع التعبير عن مقاصده. مفاضلاً بينه وبين عدد من السياقات التي قد يتبادر إلى الأذهان، اشتراكها معه في أصول المعاني، ليتجلّى تميّزه بخصوصيّةٍ نظميّة تركيبيّة، تحقِّق تفرُّدًا معنويًّا في التعبير عن الأحوال، وما يتبعها من مطابقة المقامات.

وكان عبدالقاهر يدرك أنّ النماذج التحليلية التي عرضها في نظريته تغري بتَرداد النظر والمراجعة؛ لذا أشار في غير موضع إلى ضرورة تفتيق هذه اللَّمحات، والنظر في تفاصيلها الدقيقة، وما تتبعه من ملامحَ تجلِّي صورتها المنهجيّة الكاملة، ومن ذلك قوله: ((واعلم أنّك لا تَشفي الغُلَّة، ولا تنتهي إلى ثَلْج اليقين، حتى تتجاوز حدَّ العلم بالشيء مجمَلاً، إلى العلم به مفصَّلاً، وحتى لا يقنعك إلاّ النظرُ في زواياه، والتغلغلُ في مكامنه، وحتى تكونَ كمن تتبَّع الماء حتى عرف منبعَه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يُصنع فيه إلى أن يعرف منبته، ومجرى عروق الشجر، الذي هو منه))[2]. فهو يومئ إلى ما يحتاجه الباحث في البلاغة من تقصّي الجذور والعروق الدقيقة، التي ينبت منها عود الشجر، والبحث في مجاري الأنهار عن منابعها.

ومما يدلّ كذلك على دعوته إلى توسيع آفاق النظرية في المنهج، والسير على منهجه في إبراز القواعد التطبيقيّة والبناء عليها؛ حيث يقول: ((ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى "الفصاحة"، و "البلاغة" و "البيان" و "البراعة"، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها؛ فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلَب، وموضع

(١) ينظر: الدرس اللغوي عند عبدالقاهر الجرجاني: ٧.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٦٠.

الدفين ليُبحَث عنه؛ فيخرج، وكما يُفتح لك الطريق إلى المطلوب؛ لتسلكَه، وتوضَع لك القاعدة؛ لتبنيَ عليها))[1].

فلا غرو أن يتّسم جهده بهذه القيمة؛ وهو يقتنص الإشارت المعرفّية للعلماء قبله، ويتعاهدها بالتأمّل والمعاينة والتطبيق والتحليل، وإثارة الحّس إلى مواضع الحسن والقبح في الشواهد الشعريّة، ويتبعها بالترقّي في الاستشهاد بآيات القرآن، وإجراء موازنات معنويّة تجلّي الفروق الشاسعة في النّظم القرآنيّ، وما يتبعه من تفرّد معنويّ، تثبته الموازنات والتحليلات الدقيقة، القائمة على التذوُّق، مما جعلها تكوّن بناء فكريًّا متَّسقًا، قوامه تذوُّقات بلاغيّة تأصيليّة، عرضها بطريقة منظّمة، تناقش العلاقات القائمة بين الشواهد والأصول المعرفيّة، وتسعى إلى تطبيقها على ظاهرة معينة، تضفي على التذوُّق أصولاً معياريّة، تشحذ الذهن، وتقوّي الملَكة.

٢.النظرية المجذّرة في البحوث النوعيّة:

يعرّف البحث النوعيّ بأنّه ((نشاط يضع الباحث في سياق الحدث الذي يدرسه، ويتكوّن من مجموعة من الممارسات التفسيريّة الماديّة التي تجعل العالم مرئيًّا؛ فهي تحوِّل العالم إلى سلسلة من العروض التي تشتمل على الملاحظات الميدانيّة، والمقابلات والحوارات والصور، والتسجيلات ومراجعة الذات... وتتضمّن البحوث النوعيّة نهجًا تفسيريًّا وطَبعيًّا للعالم، وهذا يعني أنّ الباحثين النوعيِّين يدرسون الظواهر في سياقها الطبيعيّ محاولين إيجاد معنًى وفهم وتفسير للظواهر بحيث يسهل على الآخرين فهمهما))[2].

وتمثِّل النظرية المجذّرة منهجيّة منتظمة، وأداة مهمّة للتحليل في المنهج النوعيّ، تعتمد على الاستقراء والمقابلات الميدانيّة، والتحليل العمليّ للبيانات المجموعة. واستنباط مجموعة من الفئات والتصنيفات التي ترتبط فيما بينها بعلاقات تشكّل إطارًا متكاملاً لتفسير ظاهرة ما، أو التنبُّؤ بها. ويُتوصَّل إلى ذلك الإطار

(١) ينظر: السابق: ٣٤.

(٢) تصميم البحث النوعي: ٢٣.

عبر جمع البيانات النوعيّة، والتعامل معها بطريقة منظّمة، واستنباط المفاهيم الموجودة في البيانات النوعيَّة المجموعة.

فيقوم منهجها على: ((حصر عناصر الظاهرة محلّ الدراسة، ومن ثم تصنيف هذه العناصر الأساسيّة عن طريق تفسير العلاقة بينها للوصول إلى الأساس، أو الجذور التي تفسِّر لنا حقيقة الظاهرة، ومن ثمّ التأصيل لها، وبشكل إجرائيّ منتظم))[(١)]. لذا جُعل هذا النظر في الجذور علَمًا على النظرية؛ فسمّيت النظرية المجذِّرة، أو نظرية التجذير؛ لما ينتج عنها من تفريع وتجذير للظواهر والبيانات والبحث عن جذورها، كما سمّيت بالنظريّة المجذَّرة بالنظر إلى ما يقع عليها من التجذير في الإجراءات.

ويتلخّص مفهومها في دراسة الظواهر من خلال جمع وتحليل منهجيّ لبياناتها، يقوم على سؤال معرفيّ، تجمع عن طريقه بيانات تخدمه، وتظهر الأفكار أو المفاهيم أو العناصر المتكرَّرة، التي تدوّن عليها رموز معيّنة، تستخرَج من البيانات، ويعاد مراجعتها لتجميع الرموز في مفاهيم، ثم فئات متعدِّدة، تستنبَط منها النتائج[(٢)] وَفق مهارات إجرائيَّة يحتاجها الباحث لتجويد العمل.

ويعدّ إبداع الباحث واهتمامه بالسِّياق الذي يمنحه فرصة لفهم طريقة تشكّل الأحداث والأفعال والمعاني والظروف عنصرًا أساسيًّا في استخدام النظرية المجذّرة[(٣)]؛ حيث إنّ التفكير الإبداعيّ يقود إلى الربط بين الظواهر المختلفة؛ وإثارة الأسئلة البحثيّة، ومراجعة الخيارات الممكنة أثناء جمع البيانات وتحليلها، واختيار العيِّنة المعتمدة، وذلك يتطلَّب فهمًا عميقًا لما يقوم بها، ودافعيّة لكي يستمرّ[(٤)]؛ فإجراءات البحث النوعيّ بعامّة والنظرية المجذّرة بخاصة تشبه كثيرًا البحوث البلاغيّة التي تقوم على تحليل النصوص والخطابات لظاهرة لغوية؛ فيمكن الإفادة من الإطار المنهجيّ

(١) مدخل لمنهج النظرية المجذّرة: ٣.

(٢) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٢٤.

(٣) ينظر: تصميم البحث النوعي: ٦٠.

(٤) أساسيات البحث الكيفي: ٤٥.

فيها لتنظيم خطوات التحليل البلاغيّ؛ حيث تمتاز النظرية المجذّرة بإمكانية تزويد الباحثين بإجراءات للتحليل، تقوم على محكّات ومعايير، يسهل استخدامها في تخصُّصات متعدِّدة بخلق نظام يظهر الإبداع في قدرة الباحث على تسمية الفئات، وتصنيفها بحرّية قوامها تأمُّلات عقلية، تفيد من المراحل والإجراءات العامَّة، وتتيح لكلِّ باحث بمنظوره الخاصّ وإبداعه الإسهام في تقديم دراسة تكامليَّة، تعكس وجهة النظر التصوُّرية لتخصُّصه(١).

أسس المقارنة بين النظرية المجذّرة ونظرية النظم:

ستنصبّ الإفادة من النظرية المجذّرة على الأسس المنهجيّة التي يمكن أن تمثِّل إطارًا للتطبيق المنهجيّ، يدرج التحليلات التذوُّقية للظواهر البلاغيّة والشواهد في نظرية النظم ضمن إطار منهجيّ، يطوّر البحث البلاغي وفق نظرية النظم، مستقصيًا الأسس التطبيقيّة التذوقيّة التي استفاض عبدالقاهر في توضيحها، دون أن تتّضح لها خطوات وإجراءات واضحة المعالم، تسهّل الأخذ بها. ولم يكن ذلك لقصور فيها، بل نتيجة للتقدّم الزمني، والاهتمام العميق بالتذوّق والتحليل لإبراز فكرة النظم.

وبوضع نظرية النظم التطبيقية في الإطار المنهجيّ للنظرية المجذّرة تتحقّق الأصالة بأخذ التطبيق التذوُّقي من التحليل البلاغيّ للنصوص في نظرية النظم، وسبكه في قواعد تأصيليّة، تسهّل على الباحثين استثمارها في تكوين منهجية علميّة، تقوم على معايير واضحة، تسهم في إضفاء الصبغة المنهجيّة على التطبيق، وتجويد البحوث العلميَّة سعيًا إلى فتح آفاق المعرفة على الأصول التربويّة للنظريات العلميّة، والتلاقح بين العقول بتخصُّصاتها المختلفة لتحقيق أنجع الوسائل في صناعة المعرفة، وخدمة المنجَز الثقافيّ، وتجويد البحث العلميّ.

مواطن التشابه المبدئيّ الذي استدعى المقارنة بين النظريتين:

١. **التكامل المعرفي:** كلتا النظريتين تعتمد على التكامل، فعلم البلاغة يوصف

(١) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٢٩-٣٠.

بأنه علم كلِّي[1]، والنظرية المجذّرة توصف بأنها إطار معرفي متكامل في أدواته المتنوّعة وإجراءاته التحليلية.

٢. **الموضوع**: يتناول كلٌّ منهما دراسة ظاهرة، إلاّ أنها تختلف في نوعها؛ ففي النظرية المجذّرة تكون الظاهرة في الأصل اجتماعية، بينما هي بلاغية في نظرية النظم.

٣. **المنطلَق**: منطلق المشروع البلاغي لدى عبدالقاهر، وإن صنّف ضمن العلوم الإنسانية، إلا أنه منطلق نوعيّ معرفيّ، ينطلق من التحليل النوعي للغة بنظامها السياقي التواصلي، وبنيتها الداخلية والخارجية التي يَرى العالم من خلالها، وعلى مستوى النظرية المجذّرة يأتي المنطلق المعرفي العامّ لها على مستوى رؤية العالم، والتحليل النوعي لظواهره الاجتماعية.

٤. **أدوات المنهج**: يقوم المنهج في كلٍّ منها على الاستقراء والتصنيف والاستقصاء والتحليل.

٥. **طريقة التناول من حيث الموضوعيَّة أو الذاتيَّة**: كلتا النظريتين تعتمد المزج بين الموضوعية والذاتية؛ فتشتركان في الاعتماد على السِّياق والمقارنة والإبداع.

٦. **مراحل التحليل**: يقوم التحليل في كلٍّ منهما على ثلاثة مراحل: تحليل مضمونيّ أوّلي، تحليل مجهريّ للجزئيات، تحليل شامل للكلِّيات.

٧. **إجراءات التحليل**: تتشابه الإجراءات في طرح الأسئلة والمقارنات وغيرها، إلاّ أن النظرية المجذّرة تحتاج إلى إجراءات ميدانيَّة عمليَّة ومقابلات واستبانات، بينما تكتفي نظرية النظم باستقصاء ما يتعلّق بالظاهرة نظريًّا وتطبيقيًّا بتأمل السِّياقات المتشابهة، والسياقات الافتراضيَّة التي تميط اللِّثام عن التميُّز في الظاهرة والدقَّة في تأليف النَّظم المعبّر عنها.

ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن من أهم أسئلة المعرفة التي يلتقي فيها البحث

(١) ينظر: منهاج البلغاء: ٢٢٦.

البلاغي مع غيره من الحقول الإنسانية الأخرى، سؤال الحوار الذي ينشئه الحقل المعرفي مع غيره من الحقول الإنسانية، ولو في خيوط رئيسة، يمكن أن يصنع منها الباحثون أسئلة كبرى؛ لذا تناول هذا المبحث الملامح العامة لكلٍّ من نظريتي الدراسة النظرية، وأبرز مواطن التشابه الذي استدعى المقارنة، ومدى صلاحية توظيف الإطار المنهجي للنظرية المجذّرة، في المجال التأصيلي للبحث البلاغي وفق نظرية النظم.

المبحث الثاني: معالم منهجية الجمع والتصنيف

يتناول هذا المبحث السمات المنهجيّة العامّة لجمع الظواهر في البحث البلاغيي وتصنيفها؛ لذا يحسن البَدء بالتفريق بين كلٍّ من المنهج والمنهجيّة في البحث العلميّ، ثم الحديث عن معالم المنهجية الخاصة بالجمع والتصنيف في النظرية المجذّرة، والتعريف بخطواتها ومصطلحاتها للإفادة منها في الجمع والتصنيف للبحث البلاغي وفق نظرية النظم.

المنهج:

لغة: يدلّ أصل نهج على وضوح واستقامة، ومنه يسمّى الطريق الواضح البيِّن منهجًا ونهجًا(١).

اصطلاحًا: المنهج: طريقة علمية يستعملها العقل في دراسة موضوع للوصول فيه إلى حقيقة معيّنة(٢)، تحقق الأهداف المرجوّة.

المنهجية:

هي معايير فكرية وقوالب موضوعية، توضع لتحديد آليات العمل المعرفيّ قبل الشروع فيه، فتتطلَّب أن يكون الباحث عارفًا بأصول المنهج العلميّ العامّ الذي يناسب موضوع بحثه، مع امتلاك القدرة على هندسته وَفق قوانين منهج عامٍّ، ومنهجيَّة خاصَّة تصل به إلى نتائج سليمة في بحثه(٣)، ويحتاج البحث إلى معايير منهجيّة ترسم إطاره العلميّ، وتتضمّن المراحل والإجراءات التي يتطلَّع إليها لإحكام المنظومة الفكريّة وصولاً إلى تحقيق أفضل النتائج.

معالم منهجيّة الجمع والتصنيف في النظرية المجذّرة:

١. **الأسئلة البحثية التي توجّه الجمع:** تبدأ منهجيّة النظرية المجذّرة في الجمع بسؤال بحثيّ حول ظاهرة معيَّنة، يليه جمع المادة، وقدح زناد الفكر لأسئلة

(١) ينظر : معجم مقاييس اللغة، ولسان العرب: نهج.

(٢) ينظر : منهج البحث في اللغة والأدب: ٣٩، والوجيز في طرق البحث العلمي: ١١٠.

(٣) ينظر : أصول البحث: ٢٤٠.

فرعيّة، تستدعي مزيدًا من البحث والجمع والتصنيف.

٢. **التصنيف:** يحتاج الباحث في الإجابة عن أسئلة البحث، إلى تأمّل الملامح العامَّة التي تبرز جوانبها، وتصنيفها وَفق رموز بحثيّة، يدوّنها للتحليل، والتصنيف الذي هو أسّ البحث العلميّ، **وهو مهارة عقلية مهمّة، تقوم على ((تجميع الأشياء، أو الوحَدات في مجموعات وَفقًا للتشابه والاختلاف فيما بينها، بحيث تتضَّمن كلُّ مجموعة منها وحَدات ذات خواصّ، أو صفات مشتركة))** [(١)].

٣. **الترميز:** وهو المذكرات التي يستنبطها الباحث من تأمُّل المادة المجموعة لديه التي يكشف من خلالها الأنماط التي تتفرّع منها، وتأتي في البداية ((على شكل صورة بدائيّة من الأفكار، ثم تنمو وتتعقّد، وتزداد كثافتها ووضوحها، ووقتها كلّما تقدّمت مراحل البحث))[(٢)]. وهذه ميزة منهجيّة مهمّة في النظرية المجذّرة، تأتي على مراحل متسلسلة منظَّمة، تواكب العمليات العقليَّة التي تقوم على مهارات التفكير من الاسترجاع والاستكشاف والتحليل والنقد والمقارنة بخطوات متوالية تصاحب عملية التصنيف، ويجدر تفصيلها والإفادة منها في جمع المادة في البحوث البلاغية، وفيما يأتي عرضها:

أ. **الترميز المفتوح أو الأوّلي:** يتناول فئات المعلومات حول الظاهرة موضع الدراسة، ويستكشف الظاهرة المركزيّة والظروف المتداخلة المسبِّبة لها، والسياقات المتعلِّقة بها[(٣)]. **ويأتي بعد** جمع المادة مبدئيًّا وفحصها وتصنيفها، فتتّضح معه الأفكار والمفاهيم أو العناصر المتعلِّقة بالموضوع، والظواهر الفرعية البارزة التي تدعمه وتحلّيه، وترتبط به، وتحقِّق أهدافه؛ وتفصح عن جوانبه، بطريقة منظّمة مترابطة، تمثّل حقائق وتصوُّرات أوّلية،

(١) الشامل في مهارات التفكير : ١٦٨.

(٢) تصميم البحث النوعي : ١٠٣.

(٣) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٦٧، وتصميم البحث النوعي : ١٠٣.

يراجعها الباحث، ويكرّرها للمزيد من الاستقراء حول الظاهرة، والتحقُّق المستمرّ من المعطيات التي تُبرزها، وتسهم في عملية توليد المعرفة لفهم خطوطها الرئيسة.

ب. **الترميز المحوريّ**: يقصد به عملية ربط الفئات الفرعيّة بفئة ما، بالنظر إلى العلاقات السببيّة عن طريق ربطها بالفئات الأخرى، والتحقُّق من علاقاتها، والنظر في الفئات التي تحتاج مزيدًا من المراجعة والتطوير[1]؛ فينتقل فيه الباحث إلى فحص أكبر للمدوّنة بالمقارنة فيما بينها، والنظر في العلاقات التي تجمعها، مع تعيين مواطن الشبه والاختلاف فيما بينها؛ ثم يعود إلى جمع مزيد منها؛ وتوسيع آفاق المادة، والنظر في العلاقات التي تستدعي مزيدًا من الجمع والفحص والتصنيف؛ ليبدأ مرحلة أخرى من الترميز وفق المفاهيم، والعلاقات المستنبطة من الظواهر المجموعة، ثم تراجع، ويعاد النظر فيها، وتُكرَّر بمزيد من الاستقراء للظاهرة، والتحقُّق المستمرّ مما جُمع حولها. في ترميز محوري، يسعى إلى إيجاد علاقات وروابط واضحة بين الترميز الأوَّلي المفتوح، وما ينتج عن هذه المرحلة من الترميز المحوريّ. فهذه المرحلة من منهجية النظرية المجذّرة تمثّل مرحلة متعمّقة في التحليل موجّهة نحو استكناه أبعاده المعنويّة.

ج. **الترميز الانتقائي**: يكون بعد النظر في الخطوط الرئيسة للمادة المجموعة التي تربط بين الفئات والمجموعات، وتستكشف العلاقات بالاعتماد على نوعي الترميز السابقين وفق نظرة شاملة، تُبرز كلّ ما يحيط بها[2].

وأثناء هذه الخطوات المنهجية، تبرز لدى الباحث صفتان مهمَّتان في استيعاب الظاهرة، والوعي بما يتفرّع عنها، حيث يمتاز بصفتين اثنتين تحقِّقان

(١) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ١٣٠، وتصميم البحث النوعي: ٢٦٦.

(٢) ينظر: تصميم البحث النوعي: ١٠٣.

الوعي التصوُّريّ هما:

١. **التشبُّع النظريّ**: ويقصد به الاستمرار في عملية الاختيار إلى أن تصبح العلاقات بين الفئات على درجة عالية من التأسيس والمصداقيّة؛ مما يكشف عن نجاح البناء وملاءمته[(١)]، وتتحقّق هذه الصِّفة لدى الباحث بتَكرار النَّظر والجمع والتصنيف، حتى يصل إلى المرحلة الأولى التي تنبثق من المادة المجموعة، بوعي حدودها الأوّليّة، وإدراك معالمها الرئيسة، التي تنتج عنها معارف متولّدة، تمكِّنه من صياغة تصوُّر مبدئيٍّ لفكرة الموضوع، وفهم أوّليٍّ للهيكل الإجرائيّ بمراحله وخطواته، مستمدّ من المصادر والمراجع العامّة والخاصّة المتعلِّقة بالموضوع، التي تسهم في إدراك المتعلّقات والمفاهيم، ويسهِّل الترميز جمعها؛ حيث يمثّل جهازًا استرشاديًّا للتعامل مع البيانات، والبَدء في تحليلها وتفكيكها لاتخاذ موقف نشط تجاهها، يسرِّع العمل التحليليّ[(٢)]، ويكفل تنظيمه، قبل العودة إلى الميدان لاستكمال عملية البحث.

٢. **الحساسيّة النظريّة**: تتكوّن هذه الصفة الذاتيَّة للباحث بعد تَكرار القراءة؛ إذ تتَّضح أمامه الرؤية، ويتحقّق له الوعي بالمعاني الشفّافة والدقيقة للبيانات، والفهم الشامل لحدودها، والروابط المتعلِّقة بها[(٣)] بما تنطوي عليه من أبعاد الجانب التنظيريّ ذي العمق التصوُّري، الذي تنمّيه القراءة المستوعبة لمعالم الظاهرة والتفكير في حدودها ومعالمها اعتمادً على ما جُمع، مع التقليل من القراءات الخارجيَّة قدر الإمكان[(٤)]؛ ليكتسب قدرة على تصوّر ملامح موضوعه مع استيعاب ما يقتضيه من إجراءات منهجيَّة بدرجة أسرع من سائر الباحثين،

(١) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٢١٠

(٢) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٦٨.

(٣) ينظر: السابق: ٤٣. ولأهمية هذه الصِّفة اختارها "جلاسير" عنوانًا لكتابه في منهج النظرية المجذّرة.

(٤) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٤٣، ومدخل لمنهج النظرية المجذّرة: ٤.

حيث يتجلّى أمامه الإطار الموضوعيّ، والحلّة التي تتناسب مع حقيقته، مع استنباط المفاهيم والمعاني القريبة والبعيدة التي تتعلّق به.

معالم منهجية التحليل التذوُّقي في نظرية النظم:

ظهر هذا العمق التأمُّلي الذي برز في الإطار المنهجيّ للنظرية المجذّرة، في نظرية النظم كذلك عن طريق الإجراءات التذوقية التي سلكها عبدالقاهر وصولاً إلى الإجابة عن السؤال البحثي الرئيس الذي انطلقت منه نظرية النظم، وهو: كيف تعمل اللغة من حيث النَّظْم ونسق الكلم؟ ولأنها مثلت المشكلة الرئيسة في نظريته وردت لفظة "نظم" في الدلائل ١٣٥ مرة، ولفظة "الكلم" ٥٧ مرة، ولفظة "نسق" ١٦، وتناول مشكلته البحثية من جانبين رئيسين هما: إعلاء مكانة الشعر والنحو، وصولاً إلى استشراف الإعجاز القرآني. فكان مناط التحليل البلاغي تقوية التذوق وتصحيح أمرين مهمّين:

أولهما: ظنّ الناس أن الشعر لا يفيد دينًا ولا دنيا.

والآخر: اعتقادهم أن النحو ضرب من التكلُّف، لا يستند على أصل، ولا يعتمد على عقل.

ولإيضاح هذين الأمرين جمع ما يستقصي شأن الإعجاز، ويثبت المزية للنظم، الذي تظهر دقائقه، وتتجلى أبعاده عن طريق المعرفة بالشعر والنحو. فدافع عن الشعر، وسعى إلى إبراز قيمته من الأقوال التي أوردها للنبي ﷺ والصحابة في الاستحسان والاستجادة، كما بيّن فضل علم النحو في معرفة دلائل الإعجاز[1].

وهكذا في كل فصل يُعقد، يجمع عبدالقاهر البيانات، ويرصد الأقوال والمسائل المتعلقة به، وينظر في أبعادها، وفي أماكن تصنيفها، ويحللها ويراجعها، ليعرضها بطريقة منطقية، بدءًا بفاتحة القول في الفصاحة والبلاغة، إلى نهاية الكتاب.

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣-٣٣.

ومن خلال هذا المبحث تجلّت معالم المنهجيّة الدقيقة في الجمع والتصنيف التي يحتاج الباحث في علم البلاغة إلى تطبيقها بطريقة منهجيّة منظمة باذلاً فيها مجهودًا في الجمع والترميز، والمراجعة والتصنيف، بالإفادة من منهجية النظرية المجذّرة في الجمع والتصنيف بصورة منظّمة تيسّر له تنظيم المعلومات، واستكمال أوجه النقص في الظاهرة من خلال البيانات المستقرأة المجموعة حولها، حتى تتجلى له المعالم المنهجية التي ترسم أبعاد الموضوع، ووتُبرز تصنيفاته، ليبدأ في مراحل التحليل الفعلي وفقًا لمراحله التي سترد في المبحث التالي.

المبحث الثالث: مراحل التحليل

المتأمّل في نظرية النظم العميقة في تحليل النصوص يتبيّن له أنها تمر بثلاثة مراحل، يمكن تكييفها وتصنيفها وفق ما ورد في منهجية النظرية المجذّرة، على النحو الآتي:

١. التحليل المضمونيّ العامّ.
٢. التحليل المجهريّ للجزئيّات.
٣. التحليل الشامل للكلِّيات.

جاءت كلّ مرحلة منها، مبدوءة بسماتها في الإطار المنهجيّ، الذي يمثّل النظريّة المجذّرة متبوعة بطريقة الإفادة منها في تطبيقات التحليل التذوُّقي لنظرية النظم على النحو الآتي:

١. التحليل المضمونيّ العامّ:

يعتمد هذا التحليل على سبر الموضوع، وتصوّر أبعاده للخروج باستدلالات منطقيّة قوامها تشخيص موضوعيّ منتظم، يقرأ الباحث من خلاله المحتوى فقرة فقرة، قراءة فاحصة، ويستخرج أبرز المعاني، التي تشكّل مجموعة من الأفكار والمفاهيم الرئيسة التي تحدِّد معالمه[(١)]، بتكثيف القراءة المضمونيَّة التي تؤدِّي إلى الفهم العميق والتأويل، وتجعل الباحث إلى حدٍّ ما مستوعبًا للمضمون، واعيًا بالمقاصد والمرامي البعيدة والدقيقة التي تتّصل به، قادرًا على التمييز بين ما يرتبط به، وما يخرج من حدوده.

ويمكن الإفادة منها في عمل الباحث في التحليل وفق نظرية النظم، ففي هذه المرحلة تأتي التأمُّلات التحليلية الكلّية الأوليّة المتعمِّقة الكاشفة عن الروابط بين المعاني والمفاهيم التي يحتاج معها إلى تَكرار النظر، ومعاودة القراءة مرّة بعد مرّة، حتى يستوعب الرَّوابط والعلاقات وشبكات المفاهيم التي وراء الألفاظ، وتتبدّى له المعاني،

(١) تصميم البحث النوعي: ٩٩.

ويفهم خبايا الزوايا، وتتكشّف له القرائن والأسرار التي تربط المعاني والألفاظ فيما بينها، باستجماع روافدها الفكرية؛ واستحضار سياقاتها؛ واستيعاب ما يحيط بها من القرائن والأحوال؛ فيواجه النصّ بالأسئلة؛ ليكتشف حقائقه الظاهره والكامنة، ويستنطق خفاياه ومعطياته وعلاقاته وأحواله وقرائنه ومقامه، ويتقصّى مدى مطابقته لمقتضى الحال. وهذا التحليل العميق لا يظهر بقراءة انطباعيّة أُولى، بل بقراءات متوالية، تُسهم في تكشُّف العلاقات، فتوصل إلى التحليل الاستنباطيّ للمعاني والمفاهيم. وظهر هذا العمق التأمُّلي عند عبدالقاهر في مجالات عدّة، أعرض منها مثالين اثنين للتوضيح:

١. استنباط تعلّق النظم بالمعاني وترتيبها: وهذا الاستنباط يتبع ترتيب الألفاظ، التي هي خدم المعاني، والمهم هو العلاقات السياقيَّة؛ فلا بدّ من إعمال الفكر في توخّي الترتيب في المعاني، ثم تليها الألفاظ، وتقفو أثرها، فإذا رُتِّبت المعاني في النفس، لم يحتج المتكلّم إلى النظر في ترتيب الألفاظ، فهي ستنتظم بحكم خدمتها للمعاني، وتعلُّقها بها. وكذا العلم بمواقع المعاني في النفس، يتبعه علم بمواقع الألفاظ الدالّة عليها في النظم(١).

٢. استنباط نوعي المعاني: فالمعاني ضربان هما: المعنى، ومعنى المعنى، ويطلق عليهما المعاني الأُوَل والمعاني الثواني؛ فالضرب الأوَّل منهما يوصل إلى الغَرضِ بدلالةٍ ظاهرة للَّفظِ وحده تُفهَم بغير واسطة، والآخرُ يتجاوز بالعقل الدلالة الأولى إلى أخرى وراءها؛ فلا يكتفي بالمعنى الموضوع في اللغُّة، بل يبحث عن دلالة ثانية توصل إلى الغَرَض. ومدار المعاني الثواني على الكناية والاستعارة والتمثيل، ففي قولهم: "هو كثير رماد القدر"، أو "طويل النجاد"، المعاني الأُوّل مفهومة من الألفاظ أنفسها، والمعاني الثواني تتخطَّى دلالة اللفظ الظاهرة إلى معنًى ثانٍ هو المقصود، يومأ إليه بالمعنى المباشر؛ فيكتسي بذلك الوشي والحلي(٢).

وبالنظر إلى ما سبق من تحليلات عبدالقاهر في نظرية النَّظْم، وتأمُّل شواهده،

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٥٤.

(٢) ينظر: السابق: ٢٦٢ – ٢٦٤.

واستيعاب تفصيلاته، يتبيّن أنها انصبّت على المعاني، مفصَّلة بنوعيها بالشواهد، لتتجلّى الخطوة الأولى للباحث في البلاغة، حيث يفيد من معيار النظرية المجذّرة وإجرائها العمليّ في التحليل الذي يبحث عن المعنى، فيستوعب من التطبيقات التذوُّقية لتحليل النصوص عند عبدالقاهر طريقة التحليل الاستنباطيّ الذي يتحقّق بمعاودة القراءة، ليصل المتلقّي إلى حقيقة ((أنّ النسق اللفظيّ هو صورة لنسق نفسيّ وراءه عقل انتظمه، وأنّ بناء الكلام هو بناء فكر وعقل، وأن ناطقيّة الإنسان هي عقله، وليست لسانه، وما دام هذا هو جوهر الكلام؛ فيجب أن تقرأه من الجهة التي يُقرأ منها، وأن تتحسّس فيه حركة العقل ونسق العقل، وأن ترى به، وفيه صفحة النفس التي صاغته))[1].

٣.التحليل المجهريّ للجزئيَّات:

تمثِّل هذه المرحلة من التحليل ثاني المراحل لدى النظرية المجذّرة؛ فلها قيمة تفصيليَّة عالية، والتحليل فيها يشبه عدسة المجهر التي توضِّح التفاصيل الدقيقة في العيِّنات، من أجل تقسيم البيانات، والاهتمام بالمعاني الجزئيّة المختلفة، ويستخدم عادة منذ بداية الدراسة، بهدف إنتاج أفكار متعدِّدة، يتعمّق الباحث حولها، ويتقدّم في الفهم والمقارنات النوعيّة المختلفة. ويمتاز التحليل المجهريّ بإمكانيَّة مراجعة التفسيرات قبل الوصول إلى الاستنتاجات[2]؛ فيخطو الباحث في هذه المرحلة خطوات عدّة من وصف الظاهرة، والنظر في الأوضاع السببيَّة، والإطارات الداخليّة، من الاعتراض والتفاعل والنتائج الجزئيّة من ذلك كلِّه[3].

ويحتاج الباحث في البلاغة في هذه المرحلة إلى فحص الأساليب، والاهتمام بتفاصيلها الدقيقة، التي تستدعي تأمُّل ما تنطوي عليه المعاني الجزئَّية بالقياس إلى سياقات تقاربها في أصول المعاني، ليتجلّى بالفهم الدقيق انطواؤها على خصوصيّة

(١) مدخل إلى كتابي عبدالقاهر: ٦٢.

(٢) ينظر: تصميم البحث النوعي: ١٠٣.

(٣) ينظر: مدخل لمنهج النظرية المجذّرة: ١١.

ودقّة، لا يشاركها غيرها فيها؛ فينتج عن هذه المرحلة في الفحص تعميق للدلالات النظميّة، يوصل إلى معانيَ جزئية متراحبة الأفق عن طريق الربط، واكتشاف العلاقات بين الأساليب، والنظر في سياقات كلٍّ منها، ومعطياته وقرائنه، وظهر هذا التحليل المجهريّ عند عبدالقاهر، في مجالات عدّة، أعرض منها مثالين اثنين للتوضيح:

١.فصّل عبدالقاهر القول في التغاير بين ما تظنّ فيه المزية للفظ وهي للنظم، متدبِّرًا أبعاد المعاني التي تظهر من النظم المعجز بطريقته المخصوصة، مستشهدًا بقول الله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[سورة مريم: ٤]، مبيّنًا فضيلة الاستعارة مع جمال النظم عن طريق الإسناد والروابط بين المعاني التي تقوم على الملابَسة، كقولهم: "طاب زيد نفسًا"، و "قرّ عمرٌو عينًا"، وأشباه ذلك مما تُنقل فيه دلالة الفعل إلى سببه، فحقيقة ﴿وَٱشۡتَعَلَ﴾ للشيب في المعنى، وإن كان لـ ﴿ٱلرَّأۡسُ﴾ في اللفظ، فلم يقل: "اشتعل شيب الرأس"، أو "الشيب في الرأس"، ليدلّ النَّظْم مع أصل المعنى، وهو لمعان الشيب وشموله، واستغراق جملته، حتى لم يبق للسواد شيء، ومن ذلك قولهم: "اشتعل البيت نارًا"، الذي يدلّ على الشمول، بخلاف ما لو قيل: "اشتعلت النار في البيت"، الذي لا يقتضى أكثر من وقوعها فيه، وإصابتها جانبًا منه. أمّا الشمول واستيلاؤها على البيت، فلا يُعقَل من مجرّد اللفظ، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾[سورة القمر: ١٢] (١).

٢. فحص عبد القاهر السياقات؛ ليبرز اختلاف المعاني تبعًا لاختلاف النظم، بإخضاع كلٍّ منها إلى مجهر المعنى للكشف عن الآفاق الدلالية للتراكيب، متدبِّرًا أبعاد النظوم المتقاربة مسلِّطًا الضوء على الخصوصيَّة المعنويَّة، التي تتبع الخصوصيّة النظميّة، ففي التفريق بين كلٍّ من: "المنطلِق زيد"، "زيد المنطلِق"، مع ما يبدو من اتفاقهما في الظاهر، فليس الأمر كذلك، بل بينهما اختلاف ظاهر. ففي "زيد المنطلِق"، إثبات لحدوث انطلاق عرفه السامع، إلاّ أنّه لم يعلم ممَّن كان، فإن قيل: "زيد المنطلِق"، أزيل

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٠٠ -١٠١.

عنه الشكّ، وتوجّهت الأنظار نحو الفاعل زيد، وإذا قُدِّم "المنطلِق" فقيل: "المنطلِق زيد"، يدلّ المعنى على رؤية إنسان ينطلِق، دون تبيُّنه؛ فيظهر من القول: إنّ الشخص الذي انطلق من بعيد هو زيد(١).

فيتجلّى بالتحليل المجهريّ الذي أجراه عبدالقاهر، كيف وضع عدسته على أسلوبين متقاربين، ربما يُظنّ تطابقهما في المعنى، لتماثلهما في الغرض ابتداءً من حيث إثبات الانطلاق، لكن عند إعادة فحص النظر، وتقريب عدسة المجهر، يبرز السرّ في التشابه ابتداء، قبل وضوح الصورة، حيث تتَّضح التفاصيل الدقيقة، في سياق كلٍّ منهما ومقامه، بإمكانيَّة مراجعة التفسيرات، قبل الوصول إلى الاستنتاجات، وفي ذلك يقول: ((فمتى رأيت اسم فاعل، أو صفة من الصفات قد بُدىء به، فجُعل مبتدأ، وجُعل الذي هو صاحب الصِّفة في المعنى خبرًا، فاعلم أنّ الغرض هناك، غير الغرض إذا كان اسم الفاعل أو الصفة خبرًا، كقولك: "زيد المنطلق"))(٢).

كما أنّ من المناسب الإفادة من التحليل المجهريّ في البحوث البلاغيّة التي تسعى إلى العناية بتخيّر اللفظ وَفق معايير دقيقة، يُفحص بها كلّ جزء، والتخيّر يختلف عن مجرّد الاختيار؛ فينظر إلى اللفظ من شتّى وجوهه ودلالاته. الدلالة المعجمية التي يحقِّقها أصل جذره في اللغة، ثم دلالته المعجميّة في السياق، ثم دلالته الصوتيّة، ثم صيغته الصرفيّة، فمثلاً ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾[سورة فاطر: ٣٧] أصل معناها من صرخ، لكن صيغة الافتعال التي جاء بها تستدعي تساؤلات عدّة هي: ما الدلالة المعجميّة التي زادت من خلال زيادة المبنى، وتسمُّع أصوات الحروف والنظر إلى مخارجها وصفاتها قوّة وضعفًا؟ وما دلالة حرف الصّفير والرّاء المفخّمة، والخاء الرِّخوة؟ وكيف بثّت المعنى قبل فَهم الدلالة المعجميّة؟ ثم يأتي اصطفاء صيغة الافتعال الصرفيّة بقلب التاء طاء، لتكون ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ دون يصرخون، وشتّان بينهما في الصوت والصيغة، والدلالة التي يزيدها حرف الإطباق؛ ليصوِّر هول الموقف، واستعملت صيغة

(١) ينظر: السابق: ١٨٦.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٨٧.

الفعل دون الاسم؛ فلم يقل مثلاً: تراهم مصطرخين، فالاسم يدّل على الثبوت، والفعل يدلّ على الحدوث، واستعملت صيغة المضارع دون الماضي؛ لتجعل الصورة المفزعة ماثلة في الحسّ.

وقد اهتمّ عبدالقاهر باللفظ، في حديثه عن قيمة التلاؤم في الحروف، ومراعاة الفروق بين المترادفات، لكنه منع أن يكون عمدة المفاضلة للّفظ، دون نظر في نظمه، يقول: ((ليس كلامنا فيما يفهم من لفظتين مفردتين نحو "قعد" و "جلس"، ولكن فيما فهم من مجموع كلام، ومجموع كلام آخر))[1]، فلتخيُّر اللفظ المفرد بصوته وجرسه ومعناه فضيلة، لكنَّها ليست عُمدةَ النظر[2]؛ لذا حرص عبدالقاهر على إبراز قيمة اللفظ داخل النظم، واستفاض في الحديث عن المعنى المصوّر. فللّفظ في القرآن قيمة جليلة بتخيّره؛ ليؤدّيَ مَهمة جليلة في النظم في مستويين رئيسين:

أوّلهما: خصوصية أصواته ومعناه قبل التأليف، وتميُّزه بدلالاته الثلاث: المعجميّة والصوتيَّة والصرفيَّة، وقد تناولها العلماء قبل عبدالقاهر أيضًا.

والمستوى الثاني: تآخيه مع قرنائه في النظم.

فجدير بالباحث في البلاغة أن يهتمّ بمسألة تخيّر اللفظ التي أبرزها العلماء قبل عبدالقاهر. فقال ابن جنّيّ (٣٩٢هـ): ((لَمَّا كانت الألفاظ للمعاني أزِمَّة، وعليها أدِلَّة، وإليها مُوصِّلة، وعلى المُراد منها محصِّلة، عُنيتِ العرب بها؛ فأوْلَتْها صدرًا صالحًا من تثقيفها وإصلاحها))[3].

ويذكر الباقلاني (٤٠٣هـ) أنّ: ((الكلمة في القرآن يُتمثَّل بها في تضاعيف كلام كثير، وهي غُرَّة جميعه، وواسطة عِقده، والمنادي بتميُّزه، وتخصُّصه برونقه وجماله))[4].

ويعلي ابن رشيق (٤٦٣هـ) من شأن اللفظ؛ فبشرفه يشرُف المعنى فـ((البلاغة

(١) السابق : ٢٦١.

(٢) ينظر: نظرية النظم وقراءة الشعر: ٣٤.

(٣) الخصائص : ٣١٧/١

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني : ٩٤

إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ))[1].

كما يذكر الراغب الأصفهانيّ (٥٠٢هـ) أنّ ألفاظ القرآن هي: ((لبُّ كلام العرب وزُبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء، في أحكامهم وحِكمهم، وإليها مفزَع حُذَّاق الشعر والبلغاء في نظمهم ونثرهم. وما عداها وعدا الألفاظ المتفرِّعات عنها والمشتقَّات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثَّمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لُبوب الحنطة)) [2].

فالمطلوب في التحليل المجهريّ، تأمُّل تخيّر اللفظ وفصاحته، ثم تآخيه مع قرنائه في السياق من خلال مقارنته بغيره من الألفاظ، وطرح الأسئلة حول مكامن تميُّزه في التعبير عن المعنى بناءً على المعطيات التي تجتمع حوله من زواياه الدلالية، وهذا مبحث أصيل في البحوث البلاغة، يأتي بعنوان تخيّر اللفظ، ولا يخفى الفرق الذي يظهر من طريقة التحليل المجهريّ بالنظر إلى الفرق بين لفظي التخيُّر والاختيار، وما يدلّ عليه بناء التخيّر من دلالة التجريب والفحص، ومزيد العناية بالنظر في أسرار الانتقاء والاصطفاء بين الألفاظ، واستكناه أسباب إيثار أحدها دون ما يقاربه.

٤ .التحليل الشامل للكُلِّيات:

تمثَّل هذه المرحلة، الخطوة النهائية في النظرية المجذّرة، وتمتاز بقدر عالٍ من التحليل يضفي الحيويَّة على البيانات، من خلال أجزاء من الفعل والتفاعل، وربطها لتتشكَّل منها نتائج متعاقبة[3]، فإذا كان التحليل المجهريّ يُعنى بالتفاصيل، ويكون في بداية الدراسة، فالتحليل الشامل ينظر إلى البيانات بمنظور أوسع، ليستوعب ما تخبر عنه بصفة عامة، ومن خلاله يستوعب الباحث الطريقة

(١) العمدة في صناعة الشعر ونقده : ٣٩٢/١

(٢) المفردات في غريب القرآن : ١٠

(٣) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ١٦٢.

الشموليَّة التي صيغت بها الأفكار الكلّيَّة المتعلِّقة بتطوير المفاهيم، دون الاهتمام بالتفاصيل.

فتقوم هذه المرحلة على فَهم علاقات الفئات الرئيسة مع بعضها بعضًا؛ فهي عملية اختيار فئة أساسية شاملة، تصبّ فيها باقي الفئات، لتفسِّر الظاهرة الكلِّية محلّ الدراسة، ويعدّ هذا التفسير هو التجذير للمشكلة، أو الظاهرة، وهو المرحلة الأخيرة التي يدور حولها تفسير الظاهرة للإجابة عن التساؤل المطروح(١).

وربما تزامنت مرحلة التحليل الشامل مع التحليل المجهري عند الباحث البلاغي الذي يطوّع مراحل التحليل بمرونة فكرية تعطي خصوصية لكلِّ ظاهرة حسبما يقتضيه الحال، والهدف من هذا كلِّه الحفاظ على مسافة الحياد العلمي، وضبط المنهج المعرفي بدقّته وصرامته، مع إعطاء مساحة للمرونة حسب الحال والمقام وهذا أسّ البلاغة. فمن صور الاهتمام التحليل الشامل لدى عبدالقاهر المتزامن مع التحليل المجهري، الذي ينطلق كلٌّ منهما في اتجاه مغاير حسب طبيعة التحليل عنايته بنقد الظواهر المعرفية دون الأشخاص، كما في نقده للجاحظ وأبي قاسم الجبائي والقاضي عبدالجبار؛ حيث لم يذكر أسماء الأشخاص حتى لا ينشغل عن معالجة المشكلة العلمية والنظرية، بل كان تحليله لهذا النوع من المسائل يرتبط بالجوهر، ويُعنى بالظاهرة وتفسيراتها دون الانغماس في سياقاتها الجزئية، فيهتمّ بالأطر المعرفية الشاملة، بوصفها بؤرة الإشكال العلمي، ويشير إلى الأشخاص بقوله "يقولون، العقلاء، تراهم"، ومن ذلك قوله: ((قد أردت أن أعيد القول في شيء هو أصل الفساد ومعظم الآفة، والذي صار حِجازًا بين القوم وبين التأمُّل، وأخذ بهم عن طريق النظر، وحال بينهم وبين أن يصغوا إلى ما يقال لهم، وأن يفتحوا للذي تبيَّن أعيَنهم، وذلك قولهم: "إنّ العقلاء قد اتفقوا على أنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين، ثم يكون أحدهما فصيحًا، والآخر غير فصيح. وذلك، قالوا، يقتضي أن يكون للفظ نصيب في المزية، لأنها لو كانت مقصورة على المعنى، لكان محالاً أن يجعل لأحد اللفظين فضل على

(١) ينظر: مدخل لفهم النظرية المجذّرة: ١١.

الآخر، مع أنّ المعبَّر عنه واحد". وهذا شيء تراهم يُعجَبون به ويكثرون تَرداده))[1].

كما يحتاج الباحث في البلاغة وفق نظرية النظم في المرحلة النهائية من التحليل الشامل إلى مراجعة النصوص الكاملة، والاهتمام بترابطها وتسلسلها، الذي يستدعي التفكُّر في اتساق المعاني في سياقاتها الكلِّية، لتتجلّى أمامه أسرار السبك والتلاحم في الصورة الكاملة المتعلِّقة بالفكرة الرئيسة، التي تقوم عليها النصوص، ويتبيّن عمليّات الانتقاء الكلِّي التي تحقَّقت على مستوى المعاني والفِقَر، حين تتناسب العبارات مع الألفاظ، وتلائم المقام مشكِّلة نصًّا محكمًا متساوقًا، يشبه نظم الحليّ، ويبرز جودة السَّبك الكلّي[2]، فيُجري فحصًا شاملاً لترتيب الكلام تبعًا لِما يقتضيه ترتيبه في النفس والعقل[3].

ولم يظهر هذا التحليل الشامل للكلِّيات عند عبدالقاهر إلاَّ في نموذج واحد، وإشارة ثمينة يُبنى عليها؛ حيث أشار إلى حاجة النّظم إلى هندسة في الترتيب، فاستشهد لاتساق المعاني الكلِّية في النظم بقول الشاعر:

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ ومَسَّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ

وشُدَّت على دُهْم المهَارَى رِحَالُنا ولم يَنْظُر الغادي الَّذِي هو رائحُ

أخذْنا بأطراف الأحاديث بَيْنَنا وسَالَتْ بأعناق المطيِّ الأباطحُ[4]

فوضّح أنّ السرّ في بلاغتها يرجع إلى المعاني الكُلّيّة وتنسيقها؛ حيث ذكر أنّ أوّل ما يظهر من محاسن هذا الشعر أنّه وَصف الانتهاء من المناسك بتعميم الألفاظ، التي ذكر منها طواف الوداع، ووصَل به مسْح الأركان، وما دلّ عليه حزْم الأمتعة، بما

(١) دلائل الإعجاز: ٤٢١.

(٢) ينظر: مفهوم الكتابة عند الجاحظ: ١٧١، والمنجز اللغوي: ٥١٠.

(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ٥٠، ٥٦.

(٤) ينظر: أسرار البلاغة : ٢٠ . والأبيات مما اختلف في نسبته بين كُثير عزة، ويزيد بن الطثرية، وعقبة بن كعب بن زهير. ديوان كثير : ٥٢٥، وشعر يزيد ابن الطثرية : ٩٧.

تحويه من إشارة وتلويح ورمز وإيماء إلى النشاط والبهجة التي تليق بحال من أتمّ نعمة العبادة، واستروح الوطن والأحباب، معبّرًا عن ذلك بتنازع أحاديث الأحبَّة على ظهور الرواحل متوجّهين إلى المنازل، بسلاسة سير كماء تسيل به الأباطح [1].

وختم هذا التأويل للمعاني بما يومئ إلى قيمة التحليل الشامل للنصّ بقوله: ((هل بقيتْ عليك حسنة، تُخِيل فيها على لفظة من ألفاظها، حتى إنّ فَضْلَ تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة، لو ذُكرتْ على الانفراد؟ وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه؟ وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي، وإن ازدادت حُسنًا بمصاحبة أخواتها، واكتست بهاءً بمُضَامَّة أترابها؛ فإنها إذا جُليتْ للعين فَرْدةً، وتُركت في الخيط فَذَّة، لم تُعدم الفضيلة الذاتية، والبهجة التي في نفسها مَطويَّة... وازدياد الحسن منها بأن يجامِعَ شكلٌ منها شكلاً، وأن يصل الذِّكرُ بين متدانيات في ولادة العقول إيَّاها، ومتجاوراتٍ في تنزيل الأفهام لها))[2].

فأعقب التحليل الجزئيّ، بتحليل شامل بمنظور أوسع، من حيث ترتيب الأفكار في الذهن والصورة الشاملة التي ظهرت بها. لكنّ هذا التحليل الشامل لم يُعط حقَّه في نظرية النظم، بل أشير إليه بإشارات تنظيريَّة سريعة، في طوايا الحديث عن سرِّ عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن بأنه لـ ((مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كلّ مثل، ومساق كلّ خبر، وصورة كلّ عظة وتنبيه، وإعلام وتذكير، وترغيب وترهيب، ومع كلّ حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأمَّلوه سورة سورة، وعُشرًا عُشرًا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة يُنكر شانها، أو يُرى أنّ غيرها أصلحُ هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتِّساقًا بهر العقول، وأعجز الجمهور،

(١) ينظر : أسرار البلاغة : ٢٢-٢٣ .

(٢) دلائل الإعجاز: ٢٤ .

ونظامًا والتئامًا، وإتقانًا وإحكامًا، لم يدع في نفس بليغ منهم –ولو حكّ بيافوخه السماء– موضع طمع، حتى خرِست الألسن عن أن تدَّعي وتقول، وخَذِيت القُروم؛ فلم تملك أن تصول))[1]. فكان هذا التنظير بحاجة إلى تحليل على مستوى السورة، يمدّ فروع فكرة النظم؛ لتشمل التناسب في السورة ومواءمة موضوعاتها، لكنه فات عبدالقاهر! واكتفى بإشارت إلى التحليل الشامل دون تطبيق. ومن ذلك أيضًا قوله: ((وليس هو "النظم" الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيرًا للنسخ والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كلٍّ حيث وضع، علةٌ تقتضي كونه هناك، وحتى لو وُضع في مكان غيره، لم يصلح)) [2].

وتلفت هذه الإشارات الثمينة من عبدالقاهر إلى التحليل الشامل للبناء، بالنظر في الإطار الكلِّي في تناسب النصوص، وتلاؤم موضوعاتها وأجزائها، وقيمة علم المناسبات القرآنية في ابتداء السور وختامها، ومقاصدها وتصريف موضوعاتها، والاتساق والالتئام فيها، والنظام المحكَم في أجزائها، وموضوعاتها، وأمثالها، وتنوُّع أساليب خطابها، بل كذلك تجاوز السورة إلى تأمُّل التناسب الكلّي بين الأجزاء الترتيبيّة للقرآن، وتدخل ضمن ما قاله من إشارات العلماء التي واجهته في خدمة العلم، بأن بعضها ((كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاء، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليُطلَب، وموضع الدفين، ليُبحث عنه فيُخرج، وكما يُفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلُكه، وتوضَع لك القاعدة؛ لتبنيَ عليها))[3]؛ فبدعوته هذه والتماسه العذر للعلماء قبله على ما يرد من إشارات قد يفوت عليهم تفصيلها، مبرزًا الحاجة إلى تطلُّبها واقتناصها، والبناء عليها خدمةً

(١) دلائل الإعجاز : ٣٩ .

(٢) السابق: ٤٩ .

(٣) نفسه: ٣٤ .

للعلم، كأنما رسم بتلك الدعوة للمتخصصِّين في البلاغة منهجًا، يسيرون عليه في البحث العلميّ باقتناص الإشارات المجملة التي تومئ إلى كنوز مخبّأة، تحتاج سعيًا في طلبها والبحث عنها، وإبرازها والبناء عليها. وفي نقص هذا التطبيق على مستوى السورة عند عبدالقاهر يقول د. محمود توفيق: ((ومما لم يوفِّه العقل البلاغي حقّه وجه من وجوه إعجازه البلاغي، هو الأحقّ في زماننا أن يكون محلّ الاعتناء، ونتحدى به كلّ عقل وبيان عربي أو أعجمي. إنه وجه إعجاز بلاغة أنساب معانيه وتصاعدها، وأنه النصّ الذي يتحقّق فيه التماسك النصّي من أجلّ ما يكون وأعظمه، وأنّ بلاغة النصّ لا توجد في غيره كمثل ما توجد فيه... والنصيحة لكتاب الله تستوجب استكمال ما لم يُستكمل، لا اجترار ما اعتُني به. وهذا يستوجب أن توجه جهود العقل البلاغيّ العربي في القادم من المدارسة إلى ما يبين عن جانب تحدّيه ببلاغته من ليسوا بعرب))[1].

فلو أنّ عبدالقاهر طبق التحليل على أقصر سورة؛ لاكتملت مراحل التطبيق التحليليّ في نظرية النظم، وتحقّق التحليل الشامل للجزء والكلّ، وتجلّى امتداد فكرة النظم، لتشمل علاقات السورة ودلالتها الكلية، بدءًا من توخّي معاني النحو داخل السياقات التركيبية في السورة، ثم تناسب نظمها الكليّ، الذي هو مناط الإعجاز. ولعلّ دراسات التناسب في إطار السور القرآنية، وترتيبها فيما بينها، تكشف عن هذا الجانب التحليلي المهمّ من نظرية النظم.

ومن خلال هذه المبحث ظهرت المراحل المنهجية التي تمر بها عملية التحليل بأنواعه المختلفة، وما يتواءم منها مع كل نوع من المسائل وصولاً إلى تحليل عميق للنصوص البليغة، بأرفع مستويات التحليل الكاشف عن أبعاد المعاني.

(١) في نقد العقل البلاغي : ١١٩-١٢١، وينظر: المعنى القرآني : ١٠.

المبحث الرابع: إجراءات التحليل

يحرص الباحث في البلاغة وفق نظرية النظم على إجراءات مفصّلة في التطبيق التحليلي القائم على التذوق مع المنهجيّة، والإجراء: مصدر أجرى، وهو تدبير، أو خطوة تتّخذ لأمر ما[1]، ويتناول هذا المبحث الإجراءات المنهجية للتحليل في كلٍّ من النظريّة المجذّرة ونظرية النظم بدءًا بإجراءات النظرية المجذّرة، لكونها تمثّل الإطار المنهجي النظري بإجراءات عملية محددة، تقوم على مصطلحات علمية معروفة في النظرية المجذَرة، فيما يأتي عرضها:

١. إثارة الأسئلة.
٢. المقارنات.
٣. القلب والعكس.
٤. البحث عن العلل والأسباب.
٥. التريّث والتوقُّف الجبري (أسلوب رفع الراية الحمراء).
٦. النظر في الأوضاع المعترضة (المعاني الاستثنائية السالبة).

وتعرض هذه الإجراءات الستة، تقفوها إجراءات أخرى مستنبَطة من التطبيقات التحليلية لنظرية النظم، وتأتي الإجراءات مقسّمة قسمين؛ لتكوَّن تسعة إجراءات منهجيّة يمكن للباحث استخدامها في البحث البلاغي.

أولا: إجراءات النظرية المجذّرة:

١. إثارة الأسئلة:

يَعني هذا الإجراء التحليليّ صياغة استفهامات حول موضوع معيّن لإبراز جوانبه، أو تسهيل تعلُّمه، وهي إجراء مهمٌّ للفَهم واستنطاق الدلالات، واستكشاف الخفايا؛ فالأسئلة من مفاتيح الفهم ومحفِّزاته، حيث تسهم في استقصاء المعاني، وترسيخ المعلومات[2].

(١) معجم المعاني: جرى.
(٢) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٣٩-٤٠.

ويبدأ طرح الأسئلة في النظرية المجذّرة من بداية الجمع ويستمرّ طوال فترة البحث، ويتسم بالدقّة في التوجيه بما يخدم البيانات، ويعرّف بحقيقتها، وينبغي أن تتّصف الأسئلة بالعمق والذكاء، وتجلية الجوانب المعرفية حول الأشياء، وقد تلجأ إلى التفكير خارج الصندوق، وتكتشف جوانب عدّة، تحقّقها صيغ كاشفة عن الأمور التي تحتاج استقصاءً وبعدًا معرفيًّا، ومن أبرز صيغها: أين؟ كيف؟ ماذا لو؟ كم؟[1].

ويمثّل هذا الإجراء عند عبدالقاهر تحليلًا عميقًا للنصوص، وما يتصل بسياقاتها وأسرار تغاياراتها النظمية، وما يتبعها من لطائف التباين المعنويّ، ونكت التمايز السياقيّ في النظوم المختلفة، ويكثر هذا الإجراء في طريقة عبدالقاهر العميقة في التحليل النظميّ، أعرض منه مثالين للتوضيح:

١.عقد فصلاً بعنوان القول في نظم الكلام ومكان النحو منه، استهلّه بقوله: ((اعلم أنّ ههنا أسرارًا ودقائق، لا يمكن بيانها إلاّ بعد أن تُقدِّم جملة من القول في "النظم"، وفي تفسيره والمراد منه، وأيُّ شيء هو؟ وما محصوله ومحصول الفضيلة فيه؟ فينبغي لنا أن نأخذ من ذِكره، وبيان أمره، وبيان المزيّة التي تدَّعى له: من أين تأتيه؟ وكيف تعرِض فيه؟ وما أسباب ذلك وعلله؟ وما الموجب له؟)) [2].

٢. طرح جملة من الأسئلة التي تثير الذهن للتفكير في حديثه عن مواضع التقديم والتأخير، حيث قال: ((من أين كان نظمٌ أشرفَ من نظم؟ وبم عظُم التفاوت، واشتدّ التباين، وترقّى الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يَقهر أعناق الجبابرة؟ أوَ ههنا أمورٌ أخَرُ نحيلُ في المزية عليها، ونجعلُ الإعجاز كان بها، فتكون تلك الحَوالة لنا عذرًا في ترك النظر في هذه التي معنا، والإعراض عنها، وقلة المبالاة بها؟ أوَ ليس هذا التهاون -إن نظرَ العاقلُ- خيانةً منه لعقله ودينه، ودخولاً فيما يُزري بذي الخطر، ويغضُّ من قَدْر ذوي القَدْر؟)) [3].

(١) ينظر: السابق: ٣٩-٨٧.

(٢) دلائل الإعجاز: ٨٠

(٣) السابق: ١٠٩.

ويتضح عند النظر في إجراء طرح الأسئلة في البحث ما يفيده من التشويق، وتوجيه الأنظار نحو عناصرَ معينةٍ، تثير أذهان المتلقِّين نحو آفاق المعرفة واستكناه أبعادها، وفهم طواياها، وترقى بالتحليل إلى مستوًى عالٍ، يؤدِّي إلى تطوير مهارات التفكير.

٢. المقارنات:

يعني هذا الإجراء التحليليّ فحص أوجه الشبه والاختلاف بين الأشياء أو الأفكار أو الظواهر أو الموضوعات أو المواقف، بناء على عدد من المعايير[١]، ويتحقّق في النظرية المجذّرة في مواضع متعدِّدة وبصيغة مستمرَّة تفاعلية، مابين مغلقة حول ظاهرة معينة، إلى بعيدة المدى حول مجموعة من الخواصّ والأبعاد[٢] لتقديم إضافات نوعيّة استثنائية عميقة أثناء البحث مستمدّة من خصوصيّة الظاهرة، واكتشاف أبعادها وعلاقاتها وروابطها المحدّدة من خلال مقارنة الخصائص والأبعاد والسمات، والإفادة منها في الاختزال أو التعديل، وإضافة بيانات جديدة[٣].

ويطالع المتأمِّل في تحليلات نظرية النظم انتشار المقارنات العقلية والتذوُّقية والجمالية، فهي الأساس المعياريّ في فحص النصوص، وإبراز تميُّز كلّ نظم على الآخر، فالمقارنة وسيلة مهمّة جدًّا في التذوُّق وإبراز الجمال، ويكثر هذا الإجراء في طريقة عبدالقاهر العميقة في التحليل النظميّ، أعرض منه مثالين للتوضيح:

١.عقْد مقارنات عدّة بين نظوم متقاربة الصياغة مختلفة المعنى: حيث يقول عن قيمة تأمُّل المعاني التي تتباين باختلاف النظوم، وضرورة النظر في وجوه كلّ باب وفروقه، فينظر في "الخبر" إلى الوجوه المختلفة، التي تدلّ عليها السياقات المتباينة، نحو: "زيد منطلِق" و"زيد ينطلِق"، و"ينطلِق زيد" و"منطلِق زيد"، و"زيد المنطلِق" و"المنطلِق زيد" و"زيد هو المنطلِق"، وزيد هو منطلِق"[٤].

(١) ينظر: الشامل في مهارات التفكير: ١٩٨.
(٢) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ١٠٣.
(٣) ينظر: السابق: ٩٥.
(٤) ينظر: دلائل الإعجاز: ٨١.

٢. إبراز دلالة الاستفهام بالهمزة ومقارنتها بنظومها المختلفة حينما يليها الاسم أو الفعل، فمن دلالة الهمزة على التقرير أن يليها الاسم، ومن ذلك ما ورد حكاية عن قوم إبراهيم عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[سورة الأنبياء]؛ فهم يريدون من الخليل عليه السلام أن يقرّ بكيفية الفعل من غير أن يردّده بينه وبين غيره، أو يوهم انتفاءه على الحقيقة، فالهمزة تقرير بفعل كان، وإنكار لسببه، وتوبيخ لفاعله. ولها مذهب آخر، هو وقوع الإنكار على أصل الفعل لو قيل: "أفعلت؟" وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾[سورة الإسراء]، وقوله عز وجل: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[سورة الصافات]، فهذا ردٌّ على المشركين وتكذيب لهم في قولهم، وإذا قدِّم الاسم صار الإنكار في الفاعل. ومثاله أن يقال لرجل انتحل شعرًا: "أأنت قلت هذا الشعر؟ كذبت، لست ممن يحسن مثله"، ففيه إنكار أن يكون القائل، دون إنكار الشعر نفسه(١).

فهو يقارن في السياق بين نظوم متقاربة في الصياغة وأصول المعاني، ومختلفة في المقام وقرائن الأحوال؛ ليثبت المزية للنظم المطابق لمقتضى الحال، المحقِّق للمعنى المراد، الكاشف عن الغرض الذي سيق لأجله.

٣. القلب والعكس:

يعني هذا الإجراء التحليليّ افتراض تبديل الأماكن فيما بين العناصر المختلفة؛ ليظهر منها تميّز كلٍّ واحد بمكانه، وتحقيق ما يحتاجه من معطيات تميِّزه، ولا يشاركه فيها غيره، بمقارنات عكسيّة، ويتحقّق بها قلب المفهوم رأسًا على عقب من أجل الحصول على تصوُّرات مختلفة، والوصول إلى اكتشافات واستنباطات صحيحة(٢).

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١١٣- ١١٤.

(٢) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ٩٨.

فيمكن أن ينطبق هذا الإجراء في تحليلات نظرية النظم بقلْب النظم إلى طريقة أخرى مباشرة في التعبير لإثبات قيمة الفنّ البلاغيّ في مقامه. أعرض فيما يأتي مثالين للتوضيح:

١. إظهار التفاوت بين التعبير بالاستعارة حين يستدعيها المقام، وما تؤدّي إليه من الأبلغية في المعنى، واختلافها عن التعبير بالحقيقة، مبيِّنًا أنّ المعاني تنقلب إن تحوّلت النظوم، فجاء في مقابل النظوم القرآنيَّة المعجزة التي تأتي بطرق المجاز، بنظوم عكسيَّة، لا تؤدِّيها في سياقها، إن سُلك فيها التعبير بالحقيقة نحو قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [سورة البقرة:٩٣]، فكم فيه من المزية على أن يقال: "اشتدّت محبّتهم للعجل، وغلبت على قلوبهم"! وكذا صورة المعنى في قوله ﷻ: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [سورة مريم: ٤]، تختلف اختلافًا بيِّنًا عن صورته في قول من يقول: "شاب رأسي كلُّه"، أو "أبيضّ رأسي كلُّه"(١).

٢. إبراز جودة اللفظ حين يراد به به دلالة المعنى على المعنى، وانتقاد العكس من ذلك، وهو رداءة اللفظ حين تنقص قوّته في التعبير عن معنى المعنى. فاستشهد لذلك بقولِ العباسِ ابنِ الأحنف:

سأَطلبُ بُعْد الدارِ عنكُمْ لِتَقْربوا وتَسْكُبُ عيناىَ الدموع لتجمُدا

فدلّ سكب الدموع على الحُزْن والكَمَد، بخلاف دلالة: "لتجمُدا"، التي أراد منها إفادة المسرَّة والسلامة من الحزنِ؛ إذ الجمود خُلُوّ العينِ من البُكاء، وانتفاء الدموعِ عنها، فكأنَّه قال: "أحزن اليومَ؛ لئلاّ أحزنَ غدًا، وتبكي عيناي جهدَهما؛ لئلاّ تبكيا أبدًا"(٢)، ولكنّ المعنى ليس كما وهم الشاعر؛ لذا ساق عبدالقاهر شاهدًا يقلب

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٢٧.

(٢) ينظر: السابق: ٢٦٨-٢٦٩.

معناه، من أجل الحصول على تصوُّرات مختلفة، والوصول إلى استنتاجات صحيحة بنقض المعنى الذي ظنّه الشاعر لدلالة جمود العين على السرور، فانتقد تعبيره مستشهدًا ببيت ورد بلفظ "الجمود"، بمعنًى مضادّ تمامًا، فالجمود هو امتناع العين من الدموع مع حاجتها إليها، ولذلكَ لا يذكر "الجمود" إلاَّ في الشكوى والذمّ، ووصْم العين بالبخل؛ لأنّ امتناعها من البكاءِ تَرْك لمعونةِ صاحِبها على تفريغ الهمّ، كما في قول الشاعر:

ألا إنّ عينًا لم تجُد يوم واسطٍ عليك بجاري دمعها لجَمودُ

فلا أحد يجعل "جُمود العين" دليل سرور وأمارة غِبْطة، وكناية عن الفرح [1]

فأجمل عبدالقاهر مقصوده من عرض الشاهد وانتقاده له، بعرض شاهد آخر عكسه، وبالردِّ على من يعتقد سلامة معناه، بأنه لا يستقيم؛ لِما يوقع من التناقض والاضطراب.

فكان الإجراء التحليليّ في هذا الشاهد يقوم على القلب والعكس؛ حيث نقد نقيض الأسلوب؛ ليبيِّن إبداع استعماله في مقامه، وسوء استعماله حين يكون باللفظ نفسه، لكن ينقلب إلى سياق مختلف، يفسد معه المعنى.

٤. البحث عن العلل والأسباب:

يعني هذا الإجراء التحليليّ ((وصف الصِّلة بين حدَثين، يكون الأول سببًا في وقوع الثاني)) [2]. والنظر في الأسباب والنتائج، والربط بينهما، وهو إجراء مهمّ في النظرية المجذّرة يساعد على التمييز بين الحقائق، وتعميق الوعي بمعطياتها بناء على ربط العلل بنتائجها؛ حيث يبرز الأحداث المؤدّية إلى ظهورٍ أو تطورٍ لظاهرة ما، بالنظر إلى الخواصّ والأبعاد المحدَّدة التي يمكن تفسيرها بإعادة النظر في الأوضاع السببيَّة المتعلِّقة بها[3].

(١) ينظر: نفسه: ٢٦٩-٢٧١.

(٢) الشامل في مهارات التفكير: ٧٦.

(٣) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ١١٣.

والمتأمّل في نظرية النَّظْم يجد أنّ عبدالقاهر يولي هذا الإجراء التحليليّ اهتمامًا بالغًا؛ حيث يقول: ((لا بدّ لكلّ كلام تستحسنه، ولفظ تستجيده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلّة معقولة، وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذاك سبيل، وعلى صحّة ما أدعيناه من ذلك دليل))[(١)]؛ فهو بهذا يؤصّل ضرورة استقصاء الأسباب؛ لترسيخ الأفكار والمعلومات. وسأعرض لهذا الإجراء مثالين للتوضيح:

١. ما أورده في حذف المفعول به مستشهدًا بقول عمرو بن معدي كرب:

فلو أنّ قومي أنطقتني رماحُهم نطقتُ ولكنّ الرماحَ أجرّتِ

فـ"أجرّت" فعل متعدٍّ، ولو عدّاه سيقع على ضمير المتكلِّم "أجرّتني"؛ فلا يُتصوَّر أن يقال: "ولكنّ الرماح أجرّت غيري"، إلاّ أنّ المعنى يلزم ترك النطق بالمفعول، والسبب أنّ ذكره يوهِم خلاف الغرض، وهو إثبات الإجرار، وحبس الألسن عن النطق، ولو قال: "أجرّتني"، جاز أن يتوهّم أنه لم يُثبت للرماح إجرارًا، بل عنى أنها أجرّته. فقد يذكر الفعل كثيرًا، والغرض منه ذكر المفعول، فلما كان في تعدية "أجرّت" ما يوهم ذلك، لم ينطِق بالمفعول، لخلوص العناية بإثبات الإجرار لـ"الرماح"[(٢)].

٢. ما ذكره عن المعنى الذي لا يحتمل إلاّ الوجه الذي هو عليه، وتكون له المزيّة والفضل حين يحتمل في ظاهر الحال وجهًا غير الذي جاء عليه، لكن تنبو النفس عن الوجه الآخر، ويظهر الحسن والقَبول في المعنى الأوّل، ومثال ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ...﴾[سورة الأنعام: ١٠٠]، فلتقديم ﴿شُرَكَآءَ﴾ حُسْن في القلوب، لا يتحقّق بالتأخير في: "وجعلوا الجنّ شركاء الله"، إذ تنتقل فيه الصورة إلى معنًى آخر. فللتقديم فائدة شريفة، ومعنًى جليلًا، فجملة المعنى ومحصوله في جعل "الجن شركاء" وعبادتهم لهم مع الله تعالى، وتقديم ﴿شُرَكَآءَ﴾ يفيد هذا المعنى،

(١) دلائل الإعجاز: ٤١.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٥٧.

ومعه معنًى آخر، وهو أنه لا ينبغي أن يكون لله شريك، لا من الجنّ، ولا من غيرهم[١].

والتعليل سمة بارزة في طريقته، إلاّ أنّه أحيانًا لا يذكر العلّة، بل يكتفي بما تشعر به النفس من الاستجادة والحسن، دون أن يكشف عن أسبابه، وذلك لأنّ سمات الحسن في البيان منها ما يبلغ شأوًا، لا تكاد الألسنة تستطيع الإبانة عن سببه، مع انجذاب القلب إليه[٢].

٥. التريّث والتوقّف الجبري (رفع الراية الحمراء):

يعني هذا الإجراء التحليليّ في النظرية المجذّرة بطريقة مصوّرة حسِّيَّة أن يلوّح الباحث بالراية الحمراء، التي تستدعي التوقّف لمزيد من التأمُّل والتبصُّر، لتبيُّن حقائق الأحكام والكلمات والنصوص القائمة على التصوّرات المعيارية حول كلمات وعبارات محدَّدة، لا سيما ما يدلّ منها على التعمُّق مثل: دائمًا، أبدًا، كلّ الناس، لا يوجد. وهذه القضية التحليليّة تستدعي عدم التسليم بأيّ شيء، أو أخذه على علّاته مطلقًا[٣].

ويطالع المتأمِّل في تحليلات نظرية النَّظْم انتشار هذه العبارات، التي تومئ إلى جوانب معياريّة، تُنبئ عن الثقافة المعرفيّة التي حازها عبدالقاهر في البصَر بالأساليب، ومقادير استعمالات الناس لها، ويظهر هذا الإجراء في طريقته في التحليل النظمي. أعرض منه مثالين للتوضيح:

١. حديثه عن القول في الإعجاز، والعُمَد التي توجب له الفضل والمزيّة، يقول فيه: ((قد أجمع الجميع على أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، وأنّ المجاز أبدًا أبلغ من الحقيقة، إلاّ أنّ ذلك، وإن كان معلومًا على الجملة، فإنّه لا تطمئنّ نفس العاقل في كلّ ما يطلب العلم به،

(١) ينظر: السابق: ٢٨٦.

(٢) نفسه: ٢٨٦.

(٣) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ١٥٠.

حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة، ومكان مسألة)) (١).

٠٢ إبراز خصوصيّة ضمير الشأن في التعبير؛ إذ إن الإعلام بالشيء بعد التنبيه عليه والتقدمة له، يكسبه فخامة وشرفًا؛ فيجري التعبير فيه مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام. ويدل على صحة ذلك ظهور معاني الفخامة والشرف في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ...﴾[سورة الحج:٤٦]، بخلاف ما لو قيل: "فإنّ الأبصار لا تعمى"(٢). ثم يعقب على ذلك بقوله: ((وكذلك السبيل أبدًا في كلّ كلام كان فيه ضمير قصّة؛ فقوله تعالى: ﴿...إِنَّهُۥلَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[سورة المؤمنون:١١٧]، يفيد من القوّة في نفي الفلاح عن الكافرين، ما لو قيل: "إنّ الكافرين لا يفلحون"، لم يُستفد ذلك. ولم يكن ذلك كذلك، إلا أنك تُعلِمه إيّاه من بعد تقدِمة وتنبيه، أنت به في حكم من بدأ وأعاد ووطّد، ثم بنى ولوّح، ثم صرّح. ولا يخفى مكان المزيّة فيما طريقُه هذا الطريق))(٣).

ففي المثال الأول وضع تعبيرًا معياريًّا هو "إجماع الجميع"، وإن كان هذا التعبير فيه نظر، فلا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه؛ بل ينبغي تقييده بالمعيار الرئيس للبلاغة، وهو مطابقته لمقتضى الحال، ولو كانت المعاني الثواني أبلغ من المعاني الأُوَل، لكان القرآن كلّه مجازات وكنايات، لكن هذه الأساليب تأتي متى ما استدعاها السياق والمقام، وطلبتها المعاني. وقد أومأ عبدالقاهر إلى هذا الأمر حين ختم كلامه السابق باستثناء يستدعي النظر والفحص في قوله: ((إلاّ أنّ ذلك، وإن كان معلومًا على الجملة، فإنّه لا تطمئنّ نفس العاقل في كلِّ ما يطلب العلم به، حتى يبلغ فيه غايته،

(١) دلائل الإعجاز: ٧٠.
(٢) ينظر: السابق : ١٣٢ .
(٣) نفسه : ١٣٣ .

وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه)) [1].

وفي المثال الثاني، أورد شاهدًا على الخصوصية الملازمة للتعبير بضمير الشأن، بأن ذكر اطّراد معناه "أبدًا" في كلّ كلام مماثل؛ ليفاد من هذا التعميم المتعمّق إيجاد قاعدة عامَّة في التعبير بهذا النمط الأسلوبيّ، يمكن التسليم بها بعد الاستقراء.

٦. النظر في الأوضاع المعترضة (المعاني الاستثنائية السالبة):

يقصد بهذا الإجراء التحليلي في النظرية المجذّرة التوقُّف مع الحالات الاستثنائية التي تقدم استكشافًا للمفاهيم بموثوقيّة، وتعطي القارئ أمانًا وثقة في النظريّة [2].

ويظهر للمتفكّر في تحليلات نظرية النَّظْم، البحث عمّا خرج عن الأصل، أو جاء مخالفًا لمقتضى الظاهر، فهذا النوع من المعاني ينطوي على نكت بيانيّة في التعبير، يحققها التأمُّل الواسع في آفاق المعاني، ويظهر هذا الإجراء في طريقة عبدالقاهر في التحليل النظميّ، أعرض منه مثالين للتوضيح:

١.الحديث عن التقديم والتأخير، الذي قال عنه: ((هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرُّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر؛ فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، وحوِّل اللّفظ عن مكان إلى مكان))[3]. واستشهد له بتقديم المفعول به على فعله، ومنه "غير" في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا...﴾ [سورة الأنعام:١٤]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ ...﴾ [سورة الأنعام:٤٠]، فللتقديم من الحسن والمزيّة والفخامة، ما لا يكون لو أخِّر فقيل: "قل أأتخذ غير الله وليا" إذ حصل بالتقديم معنى الإنكار أن يكون غير الله يستحقّ أن

(١) دلائل الإعجاز: ٧٠.

(٢) ينظر: أساسيات البحث الكيفي: ١٦١.

(٣) دلائل الإعجاز : ١٠٦.

يُتّخذ وليًّا؟ وإنكار أن يرضى عاقل بهذا الفعل! وإنكار أن يكون أحد أجهل وأعمى ممن فعله؟"، ولا تتحقّق هذه المعاني إذا قيل: "أأتخذ غير الله وليا". وذلك لأنّ الإنكار سينصبّ على الفعل وحده(١).

٢.الحديث عن الحذف، وقيمته المعنويّة مع كونه خلاف الأصل، وهو الذكر، يقول عنه: ((هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسِّحر، فإنك ترى به ترك الذِّكر، أفصح من الذِّكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون؛ إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِن))(٢). ويستشهد له بقول البحتري: ((وهو يذكر محاماة الممدوح عليه، وصيانته له، ودفعه نوائب الزمان عنه:

وكم ذُدتَ عني مِن تحامل حادث وسورةِ أيام حززنَ إلى العظم

الأصل لا محالة: حززنَ اللحم إلى العظم، إلاّ أنّ في مجيئه به محذوفًا، وإسقاطه له من النطق، وتركه في الضمير، مزيّة عجيبة، وفائدة جليلة))(٣).

ويحرص عبدالقاهر على استكناه المعاني الاستثنائيَّة التي تأتي خلاف الأصل، ومنها المجاز والتمثيل والحذف والتقديم والتأخير، فهي أساليب تخرج عن أصل التعبير، ويتوقّف عند تلك الحالات الاستثنائية، التي تقدِّم استكشافًا للبلاغة، يفوق عند مطابقته المقام والحال أصول التعبير، وبذلك يعطي المتلقِّي ثقة في استعمال الأساليب، والإحساس ببلاغتها في مقاماتها؛ والبحث عن السياقات المتفرِّدة، التي قد تجري على خلاف مقتضى الظاهر، وهي لبّ الدراسة البلاغية.

ثانيًا: إجراءات نظرية النظم التي يمتاز بها التحليل في البحث البلاغي:

يواجه المتأمّل في طريقة عبدالقاهر في نظرية النظم، إجراءات تحليلية تمتاز بها طريقته، التي تتناسب مع طبيعة النظرية، ومجالها في التحليل البلاغي العميق، وتأمل

(١) ينظر: السابق : ١٢١.

(٢) دلائل الإعجاز : ١٤٦ .

(٣) السابق: ١٧١ .

آفاق المعاني؛ لذا كان من المهم إبرازها لإكمال الصورة.

ويمكن تلخيصها في ثلاثة عناصر هي:

١. التأصيل والاستشهاد.

٢. الربط في الانتقال.

٣. الاستقصاء، واستنطاق النصوص.

وفيما يأتي عرضها:

١. التأصيل والاستشهاد:

يعني التأصيل وربطه بالاستشهاد إعادة صياغة المعلومات، أو التعبير عنها بصورة تظهر العلاقات المهمّة في عناصرها، عن طريق إبراز أصولها وقواعدها، وإيراد الشواهد التي تدعمها وتجلّي مسائلها التنظيرية. فقد حرص عبدالقاهر على أن يُتبع كلّ قاعدة نظرية بالشواهد، وظهر ذلك في معظم تأصيلاته وتحليلاته. وسأعرض منها مثالين للتوضيح:

١. حديثه عن النظم يتّحد في الوضع، ويدقّ فيه الصنع، يقول فيه: ((ممَّا نَدرَ منه ولطُفَ مأْخذُه، ودقَّ نظرُ واضعِه، وجلَّى لكَ عن شأوٍ، قد تُحسر دونه العِتاقُ، وغايةٍ يَعْيَى من قبلها المذاكى القُرّح[١]، الأبيات المشهورة في تشبيه شيئين بشيئين، كبيت امرئ القيس:

كأنَّ قُلوبَ الطيرِ رَطْبًا ويابسًا لَدى وَكْرِها العُنّاب والحشَف البالي))[٢].

٢. تتنوّع عنده الشواهد، ويتناول كلٌّ منها جانبًا من الموضوع، يقول: ((مِن الكلام ما أنت تَعلم إذا تدبَّرْته أنْ لم يحتج واضعه إلى فكْرٍ ورويّة حتى انتظم، بل ترى سبيلَه في ضمِّ بعضِه إلى بعضٍ، سبيلَ مَن عمدَ إلى لآلٍ فخرَطها في سلك، لا يبغي

(١) "المُذاكى" جمع "المُذكّى"، وهي من الخيل الجياد التي بلغت الذكاء، وهي سن القروح، و "القُرّح"، جمع "قارح"، وهو من الخيل ما بلغ خمس سنين، وتم تمامه. دلائل الإعجاز : ٩٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ٩٤-٩٥، والبيت في ديوان امرئ القيس: ١٦٦.

أكثر من أن يَمْنعها التفرُّقَ، وكمَنْ نَضَدَ أشياءَ بعضها على بعض، لا يريد في نَضده ذلكَ أن تجيء له منه هيئة أو صورة، بل ليس إلاّ أن تكون مجموعة في رأي العين. وذلك إذا كان معناك، معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئًا غير أن تعطف لفظًا على مثله، كقول الجاحظ:"جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا، وبين الصدق سببًا، وحبّب إليك التثبُّت، وزيّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحق، وأودع صدرَك برْد اليقين، وطرَد عنك ذلّ اليأس، وعرّفك ما في الباطل من الذِّلة، وما في الجهل من القِلّة"(١)) (٢).

فيظهر في تأصيله واستشهاده صياغة القواعد النظرية، والاستشهاد لها، وضرب الأمثلة بصورة تظهر جوانبها المهمّة، وتحوّلها إلى تطبيقات عقلية، ترسخ في الذهن مرتبطة بالشواهد؛ فيتحقّق من خلالها تكوين المفاهيم التي يبقى أثرها راسخًا في التأصيل المعرفيّ.

٢. الربط في الانتقال:

هو ترتيب الأحداث، أو الفقرات بطريقة منظّمة ودقيقة(٣)، تؤدّي إلى ترسيخ الأفكار والشواهد، وفَهم تسلسلها وتتابعها.

ويحرص عبدالقاهر دومًا عند الانتقال من موضوع إلى آخر أن يربط بين السابق واللاحق؛ ليحدث منظومة فكريّة متكاملة، تعيد تشكيل الأشياء بناءً على شبكة معرفيّة متوالية، تعي مواطن الشَّبه والاختلاف. وبرزت هذه السِّمة في كلّ انتقالاته بين العناصر، وسأعرض منها مثالين للتوضيح:

١.حديثه عن إثبات المعنى في قياس التمثيل، الذي ربطه بالكناية في مسألة الإثبات، حيث قال: ((هذا ما ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبدًا، وأن يعلم أنه ليس لنا إذا نحن تكلَّمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغُل، ولا

(١) الحيوان: ١/٧.

(٢) دلائل الإعجاز: ٩٦ –٩٧.

(٣) ينظر : تدريس مهارات التفكير : ٢٢١ .

هي منّا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدُث بالتأليف والتركيب. وإذ قد عرفت مكان هذه المزيّة والمبالغة التي لا تزال تسمع بها، وأنها في الإثبات دون المثبَت، فإنّ لها في كلٍّ واحد من هذه الأجناس سببًا وعلّة. أمّا "الكناية"؛ فإنّ السبب في أنْ كان للإثبات بها مزيّة، لا تكون للتصريح، أنّ كلّ عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه، أنّ إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها؛ فتثبتها هكذا ساذَجًا غُفلاً. وذلك أنّك لا تدّعي شاهدَ الصفة ودليلَها إلاّ والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يُشكّ فيه، ولا يُظنّ بالمُخبِر التجوُّز والغلط))[1].

٢.حديثه عن النظم يتّحد في الوضع، ويدقّ فيه الصنع، مثّل له بالمزاوجة يقول: ((واعلم أن مما هو أصل في أن يدُقّ النظر، ويغمض المسلك في توخّي المعاني التي عرفتَ: أن تتّحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا... فمن ذلك أن تزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء معًا)) [2]. وربط بالمزاوجة التشبيه في دقّة النظم الذي تتّحد أجزاؤه، يقول: ((وإذْ قد عرفتَ هذا النمطَ منَ الكلام، وهو ما تتَّحِدُ أَجزاؤه حتى يُوضَعَ وَضْعًا واحدًا، فاعلمْ أَنه النمطُ العالي والبابُ الأَعْظم، والذي لا تَرى سلطانَ المزيةِ يَعْظُم في شيءٍ كَعِظَمه فيه)) [3].

وبذلك يؤسِّس منهجيَّة معرفية، تحقِّق التكامل بين الأجزاء المتشابهة، والفَهم العميق لمعانيها، وأصول ارتباطها، والتدرُّب على التحليل والاستنباط، والربط بين المعاني على أسس سليمة، تحسن الانتقال بين المعاني وصياغتها في قواعد متسلسلة مترابطة، بعلاقات معنوية ظاهرة، تجعل الذهن ينتقل بينها مستوعبًا التكامل المعرفيّ الذي يربط بينها.

(١) دلائل الإعجاز: ٧٢.

(٢) السابق: ٩٣

(٣) نفسه: ٩٥.

٣. الاستقصاء، واستنطاق النصوص:

الاستقصاء هو ((نشاط بحثي منظّم يهدف إلى وصف العلاقات بين الأشياء والأحداث والكشف عنها...، ويتضمّن تفكيرًا استقرائيًّا، يقوم به الفرد بعد أن يمتلك معرفة واسعة وناقدة عن موضوع ما))[١]. ويأتي هذا الإجراء المهمّ عند الباحث في البلاغة، بفحص المسائل، وافتراض أسئلة ذهنيَّة حولها، وهذه الطريقة تعتمد على استنطاق النصوص، وإنشاء محاورات ذهنيّة، تستقصي المسائل وتحيط بجوانبها، وهي تشبه إلى حدّ كبير طرح الأسئلة، لكنّ إجراءها يختلف، وتشتهر عند عبدالقاهر وغيره من العلماء وتسمى الفنقَلة، وهي إجراء تحليلي يقوم على طرح افتراضات شرطية، تتضمن سؤالًا، يجاب عنه، بتوظيف عدة صيغ أشهرها: فإن قيل كذا فالجواب، أو فإن قلتَ كذا قلتُ كذا، وهي طريقة السؤال والجواب، وتستعمل للإثارة والتشويق والترسيخ في الأذهان، ولفظ الفنقلة نحت مثل الحمدلة والبسملة[٢].

أعرض منها مثالين للتوضيح من طريقة عبدالقاهر:

١.بعد أن تحدث عن الثناء المسجوع، مستشهدًا له بما جاء في وصف اللسان: ((اللسان أداة يظهر بها حسن البيان، وظاهر يخبر عن الضمير، وشاهد ينبئك عن غائب، وحاكم يُفصَل به الخطاب، وواعظ يَنهى عن القبيح، ومُزيِّن يدعو إلى الحَسَن، وزارع يحرث المودّة، وحاصد يحصُد الضغينة، ومُلهٍ يُونِق الأسماع))[٣]. فقد استقصى المسألة من جوانبها، مسلطًا الضوء على زاوية مهمَّة، قد تثير تساؤلاً، فهو يطرحه، ويجيب عنه: ((فإن قلتَ: أفليس هو كلامًا قد اطَّرد على الصواب، وسلم من العيب؟ أفما يكون في كثرة الصواب فضيلة؟ قيل: أمَا والصواب كما ترى فلا؛ لأنّا لسنا في ذكر تقويم اللسان، والتحرُّز من اللحن وزيغ الإعراب، فتعتدُّ بمثل هذا الصواب))[٤].

(١) الاستقصاء والدرس الاستقصائي في العلوم: ١٦.

(٢) ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح: ٢٩٤.

(٣) دلائل الإعجاز: ٩٧.

(٤) السابق: ٩٨.

٢. في إبراز الفروق في الحال وضع عنوانًا لمسألة من مسائله هي: ((القياس أن لا تجيء جملة من مبتدأ وخبر إلاّ مع الواو، وعلة ترك ذلك)) [١]. يقول: ((فإن قلت: فقد ينبغي على هذا الأصل أن لا نجيء جملة من مبتدأ وخبر حالاً إلاّ مع "الواو"، وقد ذكرت قبل أنّ ذلك قد جاء في مواضع من كلامهم. فالجواب أنّ القياس والأصل أن لا تجيء جملة من مبتدأ وخبر حالاً إلاّ مع "الواو"، وأمّا الذي جاء من ذلك؛ فسبيله سبيل الشيء يخرج عن أصله وقياسه، والظاهر فيه، بضرب من التأويل، ونوع من التشبيه، فقولهم: "كلمته فوه إلى فيّ"، إنما حسن بغير "واو" من أجل أنّ المعنى: كلمته مشافهًا له)) [٢].

ومما سبق يتبيّن قيمة هذا الإجراء في الاستكشاف، والتحرّي لإنتاج المعرفة وتحليل النصوص واستنطاقها، فهو إجراء تحليلي مهم للباحث في البلاغة، وإن لم يصرِّح بتلك الفنقَلات، لكنه يحتاج إلى وضعها دومًا في ذهنه، لاستقصاء المسائل ومحاورة النصوص، والاستفاضة في شرحها.

ومن خلال هذه المبحث ظهرت قيمة استحضار هذه الإجراءات المتنوِّعة، التي تحقّق التحليل التذوُّقي العميق بمنهجية واضحة، تعتمد على عمليات عقلية واسعة ومهارات تفكير عليا، وصولاً إلى أرقى مستويات الفهم واكتشاف العلاقات والروابط بين الأشياء، التي تظهر بواسطتها صورها الكلية الشاملة لأبعادها، مما تتضح معه أبعاد المعاني والمقاصد والأغراض التي تنطوي عليها النصوص البليغة.

(١) نفسه: ٢١٨.

(٢) نفسه: ٢١٨.

الخاتمة

وبعد، فقد سعت هذه الدراسة إلى توظيف منهج النظرية المجذّرة في تأصيل البحث البلاغي وفق نظرية النَّظْم، وجاءت في أربعة مباحث تناول أولها نبذة عن نظريتي الدراسة، ومواطن التشابه بينهما، وأبرز الثاني منهجية الجمع والتصنيف في النظرية المجذّرة للإفادة منها في وضع إطار منهجي لنظرية النظم، وفصّل الثالث مراحل التحليل المنهجي، وبسط الرابع الإجراءات التحليلية التي اتفقت في كلتا النظريتين مع تسليط الضوء على الإجراءات التي تميزت بها نظرية النظم، وخرجت الدراسة بالنتائج الآتية:

١. التشابه بين كلٍّ من النظرية المجذّرة ونظرية النظم في اهتمام كلٍّ منهما بالتحليل الذي يختلف في كيفيته وماهيته.
٢. تميّز النظرية المجذّرة بإطار منهجيّ منظم في جمع المادة وتصنيفها، يمكن أن يسهم في تنظيم منهجيّة البحث البلاغي وفق نظرية النظم.
٣. قيمة تطبيق مراحل التحليل في النظرية المجذّرة في البحث النوعيّ على نظرية النظم، في الاهتمام بتحقيق التكامل في التحليل البلاغيّ الذي يحقّق الجودة المنهجيّة.
٤. الكشف عن الإجراءات المنهجيّة للتحليل التي يتفق فيها كلٌّ من النظرية المجذّرة ونظرية النظم، مع إبراز جوانب تفرَّدت بها نظرية النظم يمكن أن توضع ضمن إجراءات التحليل المنهجيّ التي يحتاجها البحث البلاغيّ للوصول إلى أفضل النتائج.

وتوصي الدراسة الباحثين بالتعاون في مشروع علميّ يشترك فيه باحثون من قسمي الاجتماع والبلاغة لإقامة دراسات بينيّة للبحوث النوعيّة ترقى بالمنهجيّات البحثية وصولاً إلى مستويات عُليا لتجويد البحوث، وفتح آفاق المعرفة.

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على النبيّ الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع*

استراتيجيات تعليم التفكير، مصطفى نمر: دار البداية، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

الاستقصاء والدرس الاستقصائي في العلوم، د.محمود الوهر: الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.

أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، علق عليه محمود شاكر: دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ .

أساسيات البحث الكيفي، أساليب وإجراءات النظرية المجذّرة، أ.د.أنسليم ستروس، د.جوليت كوربين، ترجمة أ.د.عبدالله الخليفة: مركز البحوث والدراسات الإدارية، الرياض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

أسس البحث العلمي لإعداد الرسائل الجامعية، مروان عبدالمجيد إبراهيم: مؤسسة الوراق، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

أصول البحث، عبدالهادي الفضلي: دار المؤرخ العربي، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

إعجاز القرآن، أبوبكر الباقلاني، شرح وتعليق د. محمد عبدالمنعم خفاجي: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

تاريخ دمشق، ابن عساكر، تحقيق علي شيري: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

تدريس مهارات التفكير مع مئات الأمثلة التطبيقية، أ.د.جودت سعادة: دار الشروق، عمّان، ٢٠٠٩م.

تصميم البحث النوعي، دراسة معمّقة في خمسة أساليب، جون كريسويل، تشيريل بوث، ترجمة أ.د.أحمد الثوابية، تدقيق أ.د.خالد السعوي: دار الفكر، عمّان، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

التفكير وتعلم مهاراته، عبدالعزيز الموسوي: الدار المنهجية، عمّان، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

* ما جاء منها دون تاريخ أو رقم للطبعة، أو بيانات للنشر، فهو هكذا في الأصل.

الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ.

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ .

الدرس اللغوي عند عبدالقاهر الجرجاني، د.أحمد إسماعيل عبدالكريم.

دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، علق عليه محمود شاكر: دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ .

الشامل في مهارات التفكير، ثائر حسين: مركز ديبونو لتعليم التفكير، عمّان، الطبعة الثالثة. ٢٠١٤م.

العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق د.النبوي شعلان: مطبعة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى،١٤٢٠هـ .

في نقد العقل البلاغي، د.محمود توفيق محمد سعد: الحكماء للنشر، أبوظبي، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م.

لسان العرب ، ابن منظور: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م .

مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون، ٢٠٠٠م.

مدخل إلى كتابي عبدالقاهر الجرجاني، د.محمد أبوموسى: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

مدخل لمنهج النظرية المجذّرة، د.حسن الذبياني: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة.

المعجم الفلسفي، د.جميل صليبا: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م .

المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٣م.

معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس، عني به: د.محمد عوض مرعب، فاطمة أصلان: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ .

المعنى القرآني، معالم الطريق إلى فقهه في سياق السورة، رؤية منهجية ومقاربة تأويلية: د.محمود توفيق محمد سعد: مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٤٢هـ ، ٢٠٢١م.

المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد خليل عيتاني: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ .

مفهوم الكتابة عند الجاحظ، دراسة في كتاب الحيوان، أمين اليزيدي: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الطبعة الأولى،٢٠٢٠م.

مناهج البحث الكمي والنوعي والمختلط، رجاء أبو علام: دار المسيرة، ٢٠١٣م.

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

المنجز اللغويّ في فكر الجاحظ، الهوية والانتماء، قراءة اجتماعية في اللفظ والمعنى، أمين اليزيدي: المجلة العلمية، كلية الآداب جامعة أسيوط، العدد ٤٤، ٢٠١٢م.

منهج البحث في اللغة والأدب وتحقيق النصوص، د.عبدالله السلمي، ود.مختار الغوث: دار خوارزم، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.

نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبدالقاهر الجرجاني، د.محمود توفيق محمد سعد.

نظرية النظم عند الشيخ عبدالقاهر، دراسة، تطبيق، تحليل، د.نجاح الظهار: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الاولى، ١٤٢٦هـ.

النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، مترجم عن الأستاذين لانسون ومايبه، د.محمد مندور: دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

الوجيز في طرق البحث العلمي، أحمد المزجاجي: دار خوارزم، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

Bibliography

Strategies for Teaching Thinking, Mustafa Nemer: Dar Al Bedayah, Amman, 1st Edition, 2014.

Inquiry and Teaching Science through Inquiry, Dr. Mahmoud Al-Wahr: 1st Edition, 2016.

Asrar Al-Balagha (Secrets of Rhetoric), Abd al-Qahir al-Jurjani, commented on by: Mahmoud Shaker: Dar Al-Madani, Jeddah, 1st Edition, 1412 AH.

Basics of Qualitative Research: Techniques and Procedures for Developing Grounded Theory, Prof. Anselm Strauss, Dr. Juliet Corbin, translated by: Prof. Abdullah Al-Khalifa: Center of Administrative Research and Studies, Riyadh, 1419 AH, 1999.

Foundations of Scientific Research for Preparing University Thesis, Marwan Abdul Majeed Ibrahim: Al-Warraq Foundation, Jordan, 1st Edition, 2000.

Fundamentals of Research, Abdel Hadi Al-Fadli: Dar al-Mouarekh Al-Arabi, Beirut, 1st Edition, 1412H, 1992.

Iʿjāz al-Qur'ān, Abu Bakr Al-Baqillani, explained and commented on by: Dr. Muḥammad ʻAbd al-Munʻim Khafaji: Dar Al-Jeel, Beirut, 1st Edition, 1411 AH.

History of Damascus, Ibn Asaker, verified by: Ali Shiri: Dar Al-Fikr.

Teaching Thinking Skills- with Hundreds of Practical Examples, Prof. Dr. Jawdat Saadeh: Dar Al-Shorouk, Amman, 2009.

Research Design: an in-Depth Study of Five Methods, John Cresswell, Cheryl Booth, translated by: Prof. Ahmed Al-Thawabiya, Proofread by: Prof. Khaled Al-Sa'wi: Dar Al-Fikr, Amman, 1st Edition, 1440 AH, 2019.

Thinking and its Skills, Abdulaziz Al-Mousawi: Al-Dar Al-manhajia, Amman, 1st Edition, 2014.

Al Hayawan (The Animal), Abu Othman Al-Jahiz, verified by Abdel Salam Haroun: Mustafa Al-Babi Al-Halabi Press, Egypt, 2nd Edition, 1386 AH.

Al-Khaṣā'iṣ, Abu Al-Fath Othman ibn Jinni, verified by: Dr. Abdulhamid Hindawi: Dar al Kotob al Ilmiyah, 1st Edition, 1421 AH.

The Linguistics of Abd al-Qahir al-Jurjani, Dr. Ahmed Ismail Abdulkarim.

Dala'el Al-E'jaz (Signs of Miracles), Abd al-Qahir al-Jurjani, commented on by: Mahmoud Shaker: Dar Al-Madani, Jeddah, ٣rd Edition, 1413 AH.

Al Shammel in Thinking Skills, Thaer Hussein: Debono Center for Teaching Thinking, Amman, 3rd Edition. 2014.

Al-Umda in Poetry Industry and Criticism, Ibn Rashiq Al-Qayrawani, verified by: Dr. Al-Nabawi Shaalan: Al-Khanji Press, Cairo, 1st Edition, 1420 AH.

In Criticism of the Rhetorical Logic, Dr. Mahmoud Tawfiq Muhammad Saad: Al Hukamaa Publishing, Abu Dhabi, 1st Edition, 1440 AH, 2019.

Lisan al-'Arab, Ibn Manzur: Dar Sader, Beirut, 1st Edition, 1997.

Studies in Sciences of the Qur'an, Sobhi Al-Saleh: Dar al-Ilm for Millions, 24th Edition, 2000.
An Introduction to the Abd al-Qahir al-Jurjani's Two Books, Dr. Muhammad Abu Mousa: Wahba Library, Cairo, 1st Edition, 1418 AH, 1998.
An Introduction to the Grounded Theory Methodology, Dr. Hassan Al-Dhibyani: College of Arts and Humanities, Taibah University.
The Philosophical Dictionary, Dr. Jamil Saliba: Dar al-Kitab al-Lubnani, Beirut, 1st Edition, 1973.
The Philosophical Dictionary, Arabic Language Academy: General Authority for Amiri Press Affairs, Cairo, 1402 AH, 1983.
Dictionary of Language Measures, Abu Al-Hussein Ahmed iBn Faris: Dr. Muhammad Awad Mer'eb, Fatma Aslan: House of Revival of Arab Heritage, Beirut, 1st Edition, 1422 AH.
The Qur'anic Meaning, Towards Understanding Meaning in Light of the Context of the Surah: A Methodological Prospective and an Interpretive Approach: Dr. Mahmoud Tawfiq Muhammad Saad: Wahba Library, Cairo, 1st Edition, 1442 AH, 2021.
Al-Mufradat fi Gharib al-Quran, al-Raghib al-Isfahani, verified by: Muhammad Khalil Itani: Dar Al-Maarifa, Beirut, 1st Edition, 1418 AH.
The Concept of Writing according to Al-Jahiz: a Study in Al Hayawan Book, Amin Al-Yazidi: The Modern Book's World, Irbid, 1st Edition, 2020.
Quantitative, Qualitative, and Mixed Research Methods, Raja' Abu Allam: Dar Al Masira, 2013.
Minhaj al-Bulagha' Wa Siraj al-Udaba, Hazem al-Qirtagni, prefaced and verified by: Muhammad al-Habib Ibn al-Khoja: al-Thaqāfah al-Dīnīyah Library, Cairo.
Linguistic Perfective in Al-Jahiz Thought, Identity and Belonging: Social Reading in Pronunciation and Meaning, Amin Al-Yazidi: The Scientific Journal, Faculty of Arts, Assiut University, Issue No. 44, 2012.
Research Methodology in Language, Literature and Text Verification, Dr. Abdullah Al-Salami & Dr. Mukhtar Al-Ghouth: Dar Khwarizm, Jeddah, 2nd Edition, 1435H, 2014.
Abd al-Qahir al-Jurjani's System Theory and Poetry Reading, Dr. Mahmoud Tawfiq Muhammad Saad.
Abd al-Qahir al-Jurjani's System Theory: Study, Application, Analysis, Dr. Najah Al-Zahhar: Al-Rushd Library, Riyadh, 1st Edition, 1426 AH.
Arab Systematic Criticism and Research Method in Literature and Language, Lanson and Mayeh, translated by: Dr. Muhammad Mandour: Nahdet Misr Publishing, Cairo, 1st Edition, 1996.
Al-Wajeez in the Methods of Scientific Research, Ahmed Al-Mazjaji: Dar Khwarizm, Jeddah, 1st Edition, 1428 AH, 2007.